التفكيك والتأويل في فيزياء الكوانتم

أ.م.د. كريم موسى حسين
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم الفلسفة
engineer_kmhfee@yahoo.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

يكشف البحث عن رؤية جديدة لتمثّل الفلسفة التي تنطوي عليها فيزياء الكوانتم؛ وذلك بتطويعها لقبول قراءة مبتكرة ومستندة على أسس ومقولات فلسفة التفكيك والتأويل؛ لذلك جاءت فقرات البحث بعد التمهيد له منسجمة مع هذا التوجه العام، إذ تناولت الفقرة الأولى التلاقي المنهجي بين فلسفة التفكيك وفيزياء الكوانتم، وجاءت الفقرة الثانية استكمالا للأولى بالعثور على مشترك آخر فيما بينهما، متمثلا بالبحث عن تموضع جديد للعقل، في حين خُصصت الفقرة الثالثة لبيان أن فلسفة فيزياء الكوانتم كانت معنية بكتابة نص لغوي جديد للوجود، أما الفقرة الرابعة التي ظهرت بعنوان (الأثر المؤسس ـــ دالّة شرودنجر)، ترمي إلى المقابلة بين مفهومين إحداهما للتفكيك والأخر للكوانتم، ثم جاءت الفقرة الخامسة على شاكلة ترمي له الفقرة الرابعة، فظهرت بعنوان (مبدأ اللادقة: مبدأ التتام ـــ الإرجاء: الاخـ(ت)ـلاف)، وأخيرا أنتهى البحث بخاتمة موجزة.

المواضيع(المفاتيح) الرئيسة للبحث: فيزياء الكوانتم ــ فلسفة التفكيك ــ فلسفة التأويل

تمهيد

يبدو من الوهلة الأولى، إذا ما سعينا لربط فلسفة التفكيك والتأويل بفيزياء الكوانتم، إننا في محاولة يائسة عن جمع مجالين لا يجمعهما شيء، سوى رصفهما متجاورين في كتابة عنوان هذا البحث؛ ولكن إنعام النظر في الأصول والمبادئ العامة لكليهما، والكشف عن هدف مسيرتهما، سيبدد هذه المخاوف، ويتبين أن كل منهما شكّل انعطافا فكريا وصل إلى حد القطيعة مع ما سبقه بالتخصص، وانبثقا من نفس المحصلة التطورية للعقل الإنساني؛ احدهما في العقل العلمي متمثلا بفيزياء الكوانتم، والأخر في العقل الفلسفي متمثلا بفلسفة التفكيك والتأويل ــ لذا تعد قراءة إحداهما بواسطة الأخر ممكنة؛ لأنهما ناتج ذات المخاض الفكري الذي توصل له ذات العقل المشترك في مرحلة تاريخية مشتركة.

أن التأثير المتبادل المباشر بين العلم بشكل عام والفلسفة حصل كثيرا في التاريخ الفكري المنظّم؛ فمنذ الانفصال المزعم للعلوم التخصصية عن الحاضنة الفلسفية الأم، كانت جل المنجزات العلمية الكبرى يتم تدويرها في العقل الفلسفي مرة أخرى، بأطر فلسفية مبتكرة؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، إسقاطات فيزياء نيوتن على فلسفة كانط، واثر الثورة الميكانيكية الآلية في العلم على فلسفة ديكارت وهوبز وسبينوزا(١).

ولكن ما نريد أن نثبّته في هذا التمهيد، أن لا وجود لتأثير متبادل مباشر بين فلسفة التفكيك والتأويل من جهة، وفيزياء الكوانتم من الجهة الأخرى؛ فلم يكن من أولويات الجانب الفلسفي في هذه المقاربة السعي إلى دعم نظرية الكوانتم، ولم تكن الفلسفة التي تنطوي عليها نظرية الكوانتم ساعية لتأسيس مذهب فلسفي في التفكيك والتأويل؛ وإنما الفرضية الرئيسة التي يسير على هديّها هذا البحث، أن من المؤكد وإلى يومنا هذا، أن نظرية الكوانتم على الرغم من أنها الأيقونة العلمية الثمينة ذات النجاحات الباهرة، إلا أنها تنطوي على فلسفة، أقل ما تُوصف به، أنها غامضة ولا عقلانية ومثيرة للجدل وعصية عن الفهم، وهي ذات السمات التي وسِمت النزعة التفكيكية التأويلية في الفلسفة المعاصرة، والتي ذاع صيتها بعد انبثاق نظرية الكوانتم بنحو حوالي نصف قرن؛ وعلى هذا الأساس يفترض هذا البحث، أن تلك السمات التي لا تتناسب مع متطلبات العقلانية وبداهة الحضور في كلا الجانبين، وعلى الرغم من التباين الواسع بين مجال اختصاصهما؛ نقول أن هذه المشتركات المتطرفة بينهما تشكل إطارا عاما ثوريا للعقل وللوعي الإنساني بصفته المجردة، يتجاوز جميع التخصصات المتباينة، ما يستدعي التحري الفلسفي لتقديم رؤية جديدة تكشف عن التطلعات الفلسفية المشتركة بين الجانبين الكوانتي والتفكيكي التأويلي، على أساس أن المشترك الفلسفي بينهما هو المعبر الوحيد عن تلك السمات اللاعقلانية المشتركة، والذي يتجاوز التخصصات، ويذعن فقط لما هو عام؛ ولا سيما أن الجوانب الفلسفية في نظرية الكم لم تكن مبرزة كما هو الحال في فلسفة التفكيك والتأويل، للتفاوت في الحنكة الفلسفية بين الجانبين، وبذا ستكون هذه المحاولة دعما إيجابيا لكليهما لتبديد حدة الغموض وباقي الصفات اللاعقلانية التي تعتريهما، بعد أن تعثر كل منهما على سند فلسفي مشترك في مجال غير مجالها التخصصي.

على مدى التاريخ الحضاري للإنسان، وقفت وراء المنجزات العلمية المؤثرة متطلبات الإنسان البيولوجية والاجتماعية والسياسية؛ لذلك مع كل منجز علمي، لا ينحصر أثره فيما تشاطر به العلم مع الفلسفة بالنفاذ إلى فتوحات لما استغلق إدراكه على الصعيد الفكري فحسب؛ وإنما يرافقه أثر ينفرد به العلم، يطول التقنيات والمتطلبات المادية المستجدة في المكان الذي يقطنه الإنسان، التي تتناول طعامه وملبسه وسكنه وأدواته ومواصلاته ومناهج دراسته وغيرها، علاوة على ما ينتج من كل هذه المتغيرات العملية على شكل ضغط إعلامي علمي يصغي له الإنسان باستمرار وبوسائل مختلفة– الأمر الذي يتيح لهذه الإحداثيات المكانية الجديدة التي في حوار مباشر مع الحواس، أن تمهل فسحة للزمان كي يفّعِل أثرها في حوار مختلف مع العقل الفلسفي الذي يستلهمها على شكل مواقف فلسفية شتى، قد تتشكل في نشاطات فكرية مختلفة تماما عن النشاط الفكري للعلم، ولكن بتأثير غير مباشر منه، نتيجة تلك المتغيرات المستجدة التي أحدثها في حياة الإنسان، والتي اختمرت زمنا كافيا في بودقة عقله. وهذه هي الفرضية الثانية التي يقوم عليها هذا البحث، والمشتقة من الفرضية الأولى.

أن هذه الفرضية قد تجد لها سندا في توصيف هايدغر(١٨٨٩ – ١٩٧٦)، بأن ما ينشده السؤال الفلسفي للمواقف ذات التأثير غير المباشر للعلم، ليس لحيازة معرفة أفضل أو أسوأ من معرفة العلوم ؛ بل لمعرفة مختلفة تماما بالنوع، هي معرفة " أخرى تماما، أخرى بالنسبة للعلم، لكنها أخرى أيضا بالنسبة لما يسمى رؤية العالم"[٢]؛ أي أنها معرفة تنطلق من حيث انتهى العلم وتتجاوزه، كما يتجاوز الزمان أبعاده المكانية في بعد آخر مختلف تماما، في بعد ليس أفضل أو أسوأ عن سابقاته؛ بل أنه مختلف عنها وينتمي لها، ينتمي لنفس جذور اللحظة المركبة من المكان والزمان. وبهذا التوصيف سيكون للموقف الفلسفي المنبثق في الزمان، إحداثياته العلمية الشاخصة في المكان.

من البديهي، وحتى لا نوصد مجمل المشروع الفلسفي بقيود المنجز العلمي حصرا، نقول، أنه لا يمكن بسهولة إثبات أن لكل موقف فلسفي جذوره العلمية، فهذا شأن بحث آخر طويل، لكثرة وتنوع المواقف والنزعات الفلسفية؛ ولكن في الوقت نفسه، لا يمكن أن نجحد أثر العلم في تشكيل أطر فلسفية مهمة. واحدة من هذه المنجزات العلمية التي أرست بعمق آثارها في المكان والزمان والأذهان، هي ثورة نظرية الكوانتم التي لم نجد سواها مثيل في تاريخ العلم، بتبنيها منذ انطلاقتها لفلسفة

استندت على أسس رياضية محضة، ثم جُردت من فلسفتها سنينا طويلة؛ لأنها لم تلتزم بحدود اتساق النسق المنطقي المشيد على أسس العقلانية التقليدية وشروط الحس المشترك، وأُبقي فقط على جوانبها التجريبية العملية، فدرّت من ضرعها المعطاء منتجات ذريّة وتكنولوجية، أغدقت على العالم ذعرا وازدهارا في ذات الوقت؛ ولكن ظل شبح فلسفتها يطوف في أروقة المختبرات يتحدى المفندين، فكانت في كل محاولة تفنيد خيبة أمل وأفق جديد؛ لأن فلسفتها صرعت مَن قَبِل التحدي في ميدان التجربة وخاب أمله، وفي ذات الوقت في كل اختبار لها فُتح باب مشرق للعلم وربما للإنسان، وخير مثال على ذلك الحاسوب الكوانتي، الذي جاء تتويجا لأحد المرتكزات اللاعقلانية لفلسفتها بأن الكيان الكوانتي حاضرا في عدد كبيرا من الأماكن وفي آن واحد، والذي سخر منه حتى جهابذة العلماء؛ فبلغت نظرية الكوانتم درجة من الأصالة، بأنها كانت ينبوعا من العطاء وهي مقطوعة من جناحها الفلسفي، ثم ازدادت عطاءا بعد أن رُدّ لها هذا الجناح، مسجلة سبقا لم يشهده تاريخ الفلسفة منذ العصر اليوناني، بأن الفلسفة قادرة على قيادة البحث العلمي وإثرائه وهو في ذروة ازدهاره.

ولم يأت هذا السبق الفلسفي من فراغ، فقد صاغ فلسفة الكوانتم نخبة من العلماء الأفذاذ، اتخذوا من الرياضيات دستورا لهم، واستشرفوا من التجربة شاهدا لدعواهم، وعلى الرغم من أن المستجدات الرياضية كانت متاحة لجميع علماء عصرهم، إلا أن ليس كل ما تبوح به الرياضيات مقنع للجميع بأن له تطبيقا على الوجود والمعرفة، وكان الاستثناء منهم هم فلاسفة الكوانتم الذين استلهموا من أصالة الرياضيات تصورا فلسفيا ثوريا لمعرفتنا وعما يدور حولنا، وباستقراء معاكس خالفوا كل محرمات الحس المشترك؛ وعلى رغم من رحيل معظمهم ولم يشهدوا تلك التجارب الحاسمة، إلا أنهم استخدموا جميع الوسائل العلمية المتاحة لإقناع الكثير من زملائهم في المجتمع العلمي بصحة أراءهم؛ وكانت تعوزهم الخبرة الفلسفية المحترفة لمواجهة طوفان عقلانية فلسفة الحداثة، حتى أن بعضهم نادى مستغيثا" كلماتنا لا تسعفنا"[٣]، فتركوا لغة الرياضيات تتكلم؛ أما الذين كانت كلماتهم تسعفهم من المتخصصين في الفلسفة في ذلك الوقت، فقسم منهم ليس لديه ذلك الانخراط العلمي الوافي في نظرية الكوانتم للدفاع عن فلسفتها؛ والقسم الأخر الذي يمثل فلسفة العلم، فتبنى الموقف العقلاني الذي انشق من دائرة علماء الكم وهي في مشوارها الأول، إذ كانت تحمل فلسفة الكوانتم في طيّاتها البوادر المبكرة لاتجاهات

فلسفية معاصرة مناهضة لفلسفة الحداثة وعقلانيتها، انبثقت في النصف الثاني من القرن العشرين، ربما يفلح هذا البحث في الكشف عن هذا التقارب الفلسفي.

الملتقى المنهجي لفلسفتي التفكيك والكوانتم

من الثابت، أن فيزياء الكوانتم علم معاصر، انطلق وفي جعبته ما اذخره العقل العلمي من ثروة فكرية وعملية لسنين طويلة، حاملا هذا العرش المدخر، واخذ على عاتقه أن ينبش في أدق التفاصيل المتناهية الصغر للوجود المادي المغلف بأحلك الأسرار؛ ثم تمخض عن ذلك، إنه قطف ثمار العثور على سر هذا الوجود، ولكن كان الثمن باهضا؛ إذ لم يسلّم العالم الصغير سره إلا حينما تنازل العلم المعاصر عن ثروته السابقة، التي كانت تحرسها عقلانية الحس المشترك السليم؛ فمن المستحيل" أن نصف هذا الانهيار في كلمات معدودة، لأنه لا يبدو أننا تعرفنا عليه في كل تشعباته. وحسبنا القول إننا فقدنا التمثل التلقائي للعالم الذي اعتدنا مثوله في أصول كل تفكير. لقد انهزم الحس المشترك، وانهزمت معه مبادئ الفلسفة التي نشأت عنه"[٤]، هذا بكلمات فيلسوف العلم الفرنسي المتخصص بفلسفة الكوانتم رولان أومنيس(١٩٣١ -).

أي تنازل العلم المعاصر في محطة نظرية الكوانتم عن حتميته ودقته وسببيته ومنطقه وانتظامه، وبالمجمل عن كل سردياته الكبرى عن هذا الوجود؛ لأنه دخل إلى لعبة الوجود، والوجود من يضع قواعد اللعبة؛ لأنها في ميدانه؛ وإن أراد العقل العلمي أن يلعبها، عليه أن يرضخ لقواعدها ومقولاتها، فلا حتمية ولا دقة ولا سببية ولا منطق ولا انتظام ما يحكم هذه اللعبة، والخلاصة الفلسفية التي استثمرها العقل العلمي في غمار عالم الكم، أن عرّض كل ما لديه، لنقد العالم الصغير الساخن، المالك الشرعي لحقيقة هذا الوجود، عندئذ تطايرت مجمل أبخرة ميتافيزيقا الحس المشترك التي امتزجت في ثنايا العلم، وهذا ما أكده أومينس ثانية: " ميكانيكا الكوانتم هي العلم الذي راح يحذرنا من حدود الحس المشترك، ومن أن بعض المبادئ الفلسفية الأساسية تكون على خطأ: مثلا القابلية للفهم والتعقل، التموضع، العلية. الكلمات تخذلنا؛ كل ما تفعله أن تحمل بين دفتيها المظهر المخاتل للأشياء، وتتصادم في ما بينها عن طريق التناقضات العديدة المديدة"[٥].

لقد تم تشخيص التغلغل الميتافيزيقي في فلسفة الفيزياء، قبل انبثاق نظرية الكم بنحو قرن من الزمان، وأن هذا التغلغل لم يضر بالفلسفة فحسب، وإنما بعلم الفيزياء ذاته، وما فعلته نظرية الكوانتم أن دقت ناقوس نهاية ميتافيزيقا عقولنا المترفة ببداهة

وبساطة حسّنا المشترك، فلندع فيلسوف العلم الالماني هانز ريشنباخ (١٨٩١ – ١٩٥٣) Hans Reichenbach يروي لنا هذا الوصف بأسلوبه الخاص قائلا:

" بانتهاء القرن الثامن عشر، كانت فلسفة الفيزياء قد وصلت إلى طريق مسدود، فقد ظل النسق الشامل للمعرفة، الذي خلقه الذهن البشري، غير قابل للفهم، والواقع أن هذا الاعتراف الصريح الذي صدر عن الفيلسوف التجريبي هيوم يبدو أرفع من زعم الفيلسوف العقلي كانط القائل إن أسس الفيزياء نتاج العقل. على أن الفيزيائيين أنفسهم لم يلاحظوا ذلك الطريق المسدود، وإنما واصلوا القيام بملاحظات ووضع نظريات، ..... حتى وصلوا بدورهم إلى طريق مسدود. ومن هذا الطريق الفيزيائي المسدود انبثقت فيزياء جديدة "[٦].

وكان فلاسفة العلم الذين انتهجوا النزعة التاريخية في خط فلسفتهم، قد ميّزوا بجلاء هذا الأثر الميتافيزيقي الذي يشوب النظريات العلمية في هذه المرحلة، فهذا فيلسوف العلم ومؤرخه الفرنسي بيير دوهيم .P Duhem (١٨٦١ – ١٩١٦) صرح مبكرا بعبارة جلية أن" من الهراء أن نلجأ إلى الميتافيزيقا وذلك لتأييد أو تفنيد نظرية علمية، والسبب في ذلك يرجع إلى أن النظريات الفيزيائية والحقائق الميتافيزيقية مستقلة كل منها عن الأخرى" [٧] ؛ لذلك نجد دوهيم في هذه المرحلة المبكرة من فلسفة العلم ، يرى التفسير العلمي يحتوي في مضمونه، على إسقاط ميتافيزيقي يضع العلم في متاهات هو في غنى عنها ، وعلى هذا الأساس سيكون علم الفيزياء، مختص بملاحظة الظواهر ووصفها واكتشاف قوانينها دون النفاذ إلى تفسيرها، لان ذلك ما ترمي إليه الميتافيزيقا في البحث عن ماهية الأشياء وأسباب الظواهر الفيزيائية[٨] .

وهذا فيلسوف العلم الأمريكي توماس كون Thomas Kuhn (١٩٢٢ – ١٩٩٦)، وهو ينقب في ملفات تاريخ العلم يصف لنا هذا المشهد العام لنفاذ الميتافيزيقا في النظريات العلمية بقوله:

" مع غياب أدنى حد ضمني من المعتقدات النظرية والمنهجية المتكاملة والتي يدعم بعضها البعض وتسمح بالاختيار والنقد والتقييم ، فإذا لم تكن هذه المجموعة من المعتقدات قائمة ضمن حصاد الوقائع التي تم جمعها ، بحيث يتجاوز ما بين ايدينا " الوقائع الخام " إذن يتعين توفيرها من الخارج ، ربما عن طريق نظرة غيبية ميتافيزيقية سائدة " [٩]

بمعنى أنه تبدو معظم انجازات العقل العلمي التي سبقت ثورة نظرية الكم، كانت محاولات علمية مؤطرة بميتافيزيقا العقل الفلسفي؛ فلا نستغرب في كل كبوة تعترض نظرية علمية في هذه المرحلة، يسارع المدافعون عنها باستدعاء عون ميتافيزيقي، وحتى ديني، لإنقاذها، ولا يستثنى من ذلك حتى كبار علماء الفيزياء وعلى رأسهم أينشتين، فبعد أن تقطعت به السبل، مثلا، بالدفاع عن عقلانية المشروع العلمي المتماشية مع متطلبات الحس المشترك، وهو في مواجهة ما آلت إليه المستجدات غير المنسجمة مع تلك العقلانية في بحوث نظرية الكوانتم، ودفاع جماعة تفسير كوبنهاجن عن تلك المستجدات، حينها أطلق عبارته الشهيرة المستغيثة بعون ديني " الله لا يلعب النرد"(١٠).

إذ ما سعت فيزياء الكوانتم وفقا لتخصصها، بالبحث عن حقيقة عالم الوجود المادي الذي يحيط بالإنسان، وخلصت بمواقف فلسفية ثورية لا تتماشى مع العقلانية العلمية السائدة، نجد لاحقا اتجاهات فلسفية انتهت بنفس المواقف الفلسفية حينما شرعت بالبحث ووفقا لتخصصها في عالم الفكر الملاصق للإنسان؛ وكما تطلب الأمر لمعرفة حقيقة الوجود المادي في مشروع فيزياء الكوانتم ، بالتوجه إلى البحث في العالم الذري الصغير المؤسس له، شرعت هذه الاتجاهات المعاصرة، ومن دون تخطيط مسبق منها لمحاكاة تجربة نظرية الكوانتم، بالتوجه إلى البحث في عالم اللغة لإنجاز مهمة معرفة التركة الفكرية وإعادة تقييمها من جديد، بعد أن خلصت إلى أن مجمل الفكر الإنساني قد أسسه عالم اللغة، كما هو شأن العالم الذري الذي أسس مجمل الوجود المادي، فأخذت على عاتقها مهمة البحث عن الأصالة المزعومة لهذا الفكر الذي نقشته وصنعته اللغة، من حيث أن" اللغة وحدها هي التي تفسح لنا الطريق وتسمح لنا بالمرور نحو كل إرادة في التفكير"(١١) بتوصيف هيدجر؛ عندئذ لا يمكن إدراك هذا الهدف إلا بالنبش أيضا في تفاصيل عالم اللغة، للتعرف على سر علاقتها بما ادخره الفكر من أصالة في مقولاته الكبرى، التي تمركزت حول العقل والحقيقة والنظام والوحدة والاتساق وأصالة ميتافيزيقا الحضور وغيرها، إذ كانت اللغة بمثابة العالم الذري الصغير الذي سيكشف حقيقة أصالة هذا الفكر ومركزياته؛ ثم عاد لنا هذا المشروع وفي يده سر اللغة، ولكن من دون تاج العرش الذي اذخره الفكر من سرديات كبرى، إذ لم تكشف اللغة سرها أيضا، إلا حينما تنازل العقل الفلسفي عن هذا العرش الواهم ذي السرديات الكبرى، عندئذ غدا الفكر في تطابق تام مع اللغة، وإنه مجرد لعبة لغة، واللغة هي من تضع القواعد،

لأن الفكر يلعب في ميدانها[١٢]، وبكلام أكثر وضوحا بقلم جاك دريدا، Jacques Derrida (١٩٣٠ – ٢٠٠٤) ، العلامة البارزة في فلسفة التفكيك :

" أن تضخم العلامة ' لغة ' هذا، هو تضخم العلامة بالذات، إنه التضخم المطلق، التضخم بذاته، ومع هذا، فما يزال هذا التضخم يومئ لنا من خلال وجه له أو ظل: إن هذه الأزمة لتمثل عرضا أيضا، عرض يشير، كأنما رغما عنه، إلى أن حقبة تاريخية– ميتافيزيقية قد باتت مطالبة بأن تحدد أخيرا، فضائها الإشكالي كله كلغة. وهي [الحقبة التاريخية الميتافيزيقية] عليها أن تفعل ذلك لا فقط، لأن كل ما كانت الرغبة انتزاعه من لعبة اللغة يلوح مستعادا فيها [مستنسخا فيها] ، وإنما كذلك لأن اللغة بالذات تجد نفسها مهددة في حياتها، ضائعة، ومبلبلة لكونها لم تعد تعرف لها حدودا، ومحالة إلى تناهيها الخاص....مؤطرة ومحفوظة بالمدلول غير المتناهي الذي كان يبدو وهو يفيض عنها او يتجاوزها"[١٣] .

ومن ثم، إن اراد العقل الفلسفي فهم لعبة اللغة، عليه الرضوخ لقواعدها، فالاختلاف والتشظي والانتشار وأصالة الغياب والاثر والتأويل ما يحكم هذه اللعبة، وإذا ما أجاد العقل الفلسفي التعامل مع هذه المقولات الجديدة ــ حينها يمتلك ناصية تتبع أي أثر ميتافيزيقي يشوب الفكر الفلسفي، باعتباره جزء من إشكالية اللغة ذاتها. وهذا ما دعا جاك دريدا أن يضعنا أمام مفارقة العقل الفلسفي، القائمة بين طموح العقل الحر، والتسليم الاجباري بلا وعي لقيود اللغة، بين ما ترمي له إرادة الكتابة، وبين ما تستجيب له القراءة في داخل لعبة اللغة، في هذا الوصف الحذق :

" الكاتب يكتب بلغة ومنطق ليس بوسع خطابه فيهما من حيث طبيعته، أن يسيطر بشكل مطلق على النظام والقوانين والحياة، إنه لا يستخدمها بقدر ما يسلم قيادته بطريقة أو بدرجة ما للنظام [لنظام اللغة] ، والقراءة تستهدف دائما علاقة معينة، غير مدركة من جانب الكاتب، بين ما يوجهه الكاتب من تصميمات اللغة التي يستخدمها وما لا يوجهه. هذه العلاقة ليست تقسيما كميا للظل والضوء، للضعف والقوة، ولكنها بنية دالة تنتجها القراءة النقدية "[١٤]

لذا يراهن دريدا على الإستراتيجية الشاملة لفلسفة التفكيك، عن طريق هذه القراءة النقدية، على تقويض الميتافيزيقا القابعة خلف النصوص التي صاغها الخطاب الفلسفي عبر تاريخه الطويل، فهو يصف هذه الإستراتيجية بقوله:

" إن تفكيك الفلسفة يعني إذن الاشتغال عبر الجينالوجية التي قد شيدت مفاهيم الفلسفة اشتغالا يقيم عند هذه المفاهيم، إقامة يداخلها الشك، ويعين في الوقت نفسه

ــ من منظور خارجي ليس بالإمكان منحه اسما أو وصفا بعد ــ ما قد حجبه هذا التاريخ أو أبعده؛ ذلك التاريخ الذي أنشأ نفسه من أوله إلى آخره تاريخا لهذا القمع، وهاهنا يكمن الرهان "[١٥].

وبهذا الوصف يبدو أن فلسفة الكوانتم والتفكيك، قصدا الهدف نفسه وسارا المنهج نفسه، ببلوغ غاية نقد العقل العلمي والعقل الفلسفي على حد سواء، وبواسطة الكشف عن مواطن الميتافيزيقا الرابضة في فناء العقل الإنساني، ومن ثم الإفلات منها ومعارضتها. وعن هذا النزاع برز أمران: الأول، إن تعارض فلسفة الكوانتم والتفكيك مع هيمنة الميتافيزيقا، قد انصّب على النواة المركزية لها، إذ كليهما استهدف السرديات الكبرى للعقل العلمي والعقل الفلسفي على حد سواء، ومن هنا نستطيع أن نخمن عمق أثر هذين الانجازين على العقل الإنساني بالمجمل؛ والأمر الثاني، لم يكن هذا الاستهداف للميتافيزيقا ناجم عن نزاع فكري أيديولوجي، تعبيرا عن موقف خصم ينصُب العداء لها، وإنما نتيجة ولادة طبيعية تطورية، انبلجت من رحم الميتافيزيقا ذاتها، فرضتها بحوث مستفيضة في مجال العلم والفلسفة، اتسمت بالموضوعية النقدية لمراجعة ونقد العقل بالمجمل؛ لذلك يرى واحد من أبرز رواد علماء نظرية الكم ومفلسفيها الألماني فيرنر هايزنبرغ Werner Heisenberg (١٩٠١ – ١٩٧٦)، أننا لا يمكن أن ننكر أن الكثير من التطورات التي حصلت في الفيزياء المعاصرة نجد لها جذورا فلسفية في مجريات الفيزياء السابقة إلا " أن التغير الذي طرأ على مفهوم الواقع يكشف عن ذاته في نظرية الكم لا باعتباره استمرارا بسيطا للماضي، بل يبدو أنه قطيعة حقيقية في بنية العلم الحديث"[١٦].

وهذا ما يؤكده أيضا دريدا بأن هيدجر ومجمل المنخرطين في فلسفة التفكيك، لا زالوا ينهلوا من المورد التركيبي، والمعجم اللغوي للميتافيزيقا اضطرارا، بالتزامن مع مسعاهم الحثيث بتقويض بنائها[١٧]، وفي كلام أكثر جلاء يبرز فيه دريدا، صعوبة الانسلاخ والفرار من الميتافيزيقا، التي لها داخل وليس لها خارج، وما يتكبده التفكيك من عناء النقد والمسائلة من الداخل، إذ يقول:

" أن الميتافيزيقا، كما عبرت عنه في موضع آخر، ليست تخما واضحا، ولا دائرة محددة المعالم والمحيط، يمكن أن نخرج منها ونوّجه لها ضربات من هذا الخارج، ليس هناك من جهة ثانية (خارج) نهائي أو مطلق. إن المسألة مسألة انتقالات موضعية، ينتقل السؤال فيها من طبقة معرفية إلى أخرى، ومن مَعلم إلى مَعلم، حتى يتصدع الكل، وهذه العملية هي ما دعوته بـ (التفكيك)"[١٨].

التموضع الجديد للعقل

نتيجة لهذه القطيعة مع الفيزياء التقليدية، سعت فيزياء الكوانتم إلى المواجهة المباشرة مع الوجود المادي، ومن دون وساطة ميتافيزيقية تقوم بمهمة التفسير والبيان الذي يتماشى مع عقلانية الحس المشترك، إذ تكرست هذه المهمة الأخيرة بوضع النماذج الصورية للوجود المادي التي تتماشى مع تقليدية عقلانية الحس المشترك، وعلى الرغم من وجود الكثير من عمالقة العلم المعاصر سعى بالدفاع عن قدرة العقل العلمي على تفسير كل ما يقع في متناوله من مواضيع على غرار ما تمليه عقلانية العلم، على اعتبار ان مهمة التفسير من أهداف العلم السامية التي لا يمكن التنازل عنها، وأن تفسير ووضوح العالم الفيزيائي عده البعض من أساسيات الإدراك العلمي، ومعارضته تشكل صعوبة فسيولوجية معقدة[١٩]؛ ولكن على صخرة فيزياء الكوانتم تهشم الاعتزاز بهذا الهدف، بعد أن عزّ على العلماء إيجاد رمق من الأسس التي يُبنى عليها التفسير والبيان العقلاني، وأبى الوجود الطبيعي الأساس في هذا العالم أن يرضخ لهيمنة تلك العقلانية، فلم يجد علماء الكم من سبيل، إلا تأويل ظواهر هذا العالم وقبولها كما هي؛ الأمر الذي دفع ريتشارد فاينمان (١٩١٨ – ١٩٨٨) النجم اللامع في نخبة علماء الكوانتم أن يصرح واثقا: " أعتقد أنه يمكنني أن أقول باطمئنان بأنه لا يوجد أحد يفهم ميكانيكا الكوانتم "[٢٠]، على الرغم من أن هذه النظرية الأكثر اختبارا في تاريخ العلم، والأكثر توافقا مع توقعاتنا، ولم تسقط قط في الاختبار[٢١].

إن ضياع إيقونة عقلانية العلم الكلاسيكية في متاهات عالم الكم، لم تأت من فراغ، فقبل ولوج العلم إلى البحث في ثنايا العالم الذري الصغير، تعامل العقل العلمي قرونا طويلة مع الظواهر الكبيرة والمتوسطة في العالم الأرضي وما يحيط به عن قرب؛ ولأن الحوار بين ظواهر الطبيعة والعقل، يجري بين طرف عتيد تلقائي غير مكترث وغير واع، وأخر ضئيل يراقب بتحفز ووعي، يطمح للاستحواذ بما يتيسر له من إدراك ذاك الجبروت الماثل أمامه؛ لم يتسنى للعقل إذن، سوى ضغط هذا المارد الكبير بأنموذج صوري مبتكر منه، ابتغاء الإلمام به واقتناصه ورزمة بحبال النموذج الصوري المبتكر— والنتيجة، تغدو الحقائق العلمية تعبر عن شبكة ميتافيزيقا العقل الملقاة على صيدها في الخارج، التي تتخذ أشكالا مختلفة تبعا لما تقتضيه خصوصية الموضوع الخارجي كي تتمكن من إدراكه؛ فكلما كان الصيد واضحا وكبير المعالم، كلما سهلت مهمة شبكة النموذج الصوري أن تتوائم وتتكيف

علـى وفـق انحنـاءات موضـوعها الخـارجي للـتمكن منـه واصـطياده. إذ يكتـب بهـذا الصدد عالم الفيزياء البريطاني بول ديفز Paul Davies (١٩٤٦-):

" كـان علمـاء الفيزيـاء يمارسـون الميتافيزيقـا بشـكل أو بـأخر، وأن جـزءا مـن عمـل عـالم الفيزيـاء الرياضـي هـو تقصـي نمـاذج رياضـية ممثلنـة idealized، فهـذه النمـاذج تلعـب دور ((أكـوان دمـى toy)) بالإمكـان استكشـافها فـي حينهـا، أحيانـا مـن اجـل إعـادة الخلـق، وعـادة مـن أجـل إلقـاء ضـوء علـى العـالم الحقيقـي، وذلـك مـن خـلال إرساء موضوعات مشتركة محددة بين نماذج مختلفة"[٢٢].

وهـذا يفسـر أن وضـوح الظـواهر فـي العـالم الأرضـي ومعايشـتها لمـدة طويلـة، فـتح الطريـق للعقـل العلمـي بيسـر كثيـر علـى فـرض هيمنـة صـورية عقلانيـة عليهـا؛ بيـد أن هـذه الصـورية كانـت تعبـر عـن وضـوح ظـواهر اختزلـت واخفـت بـداخلها الكثيـر مـن غمـوض التفاصـيل الدقيقـة، ممـا سـهلت هيمنـة مركزيـة العقـل وصـوريته فـي تفسـير وبيـان معظـم هـذه الظـواهر. ولكـن فـي حقيقـة الأمـر، أن العقـل وهـو منهمـك فـي تفسـير الوجـود وظـواهره، كـان يفسـر مسـاحة كبيـرة مـن ذاتـه، يفسـر ظـواهر ألبسـها مفاهيمـه وثيابـه، ألبسـها حتميتـه وسـببيته ودقتـه، وبالمجمـل كـل ميتافيزيقـاه، عندئـذ غـدا المشـهد العلمـي غـزارة فـي التفسـير والبيـان، ولكـن تشـوبه شـحة فـي المنجـزات المعرفيـة والعمليـة. فهـذا الانشـغال بمهمـة التفسـير والبيـان المتناسـبة مـع طمـوح عقلانيـة العلـم، والمبنيـة علـى توأمـة مقـولات العقـل ومسـلماته مـع مجريـات الوجـود وظـواهره، انعكـس سـلبا علـى مقـدار المنـتج المعرفـي والعملـي المنجـز فـي هـذه المـدة، مـا دفـع فيلسـوف العلـم غاسـتون باشـلار (١٨٩٠ – ١٩٧٦) بـالزعم، أن مـا أنجـز فـي الخمـس والعشـرين سـنة مـن بدايـة القـرن العشـرين ــ مـدة انطلاقـة ثـورة نظريـة الكـم ــ يعـادل مـا يقارب ما أنجزه العلم خلال خمسمائة سنة[٢٣].

لقـد كـان العلـم فـي مـدة مـا قبـل ثـورة نظريـة الكـم، يـزاول عملـه فـي الـدائرة التـي سـمح كـانط العمـل بهـا، وهـي دائـرة الشـيء لذاتـه، دائـرة الظـواهر، أي لمـا يظهـر للعقـل، وفـي كـلام أدق لمـا يظهـر العقـل فيـه، فكـان العقـل يمثـل الباحـث، وكـذلك الجـزء الكبيـر مـن الموضـوع الـذي يبحـث فيـه؛ لأن الكثيـر مـن مقولاتـه منعكسـة علـى موضـوع البحـث، بيـد أن بولـوج العقـل العلمـي إلـى عـالم الكـم الصـغير، عندئـذ صـار العمـل فـي الـدائرة التـي منـع كـانط العمـل بهـا، وهـي دائـرة ' الشـيء فـي ذاتـه '، ربمـا كـان ذلـك تحقـق لنبـوءة الفيلسـوف الإنجليـزي فرنسـيس بيكـون(١٥٦١ – ١٦٢٦) حينمـا قـال: " يومـا مـا ستصـبح مبـادئ العلـم وثيقـة القربـى مـن قلـب الأشـياء وماهيتهـا، حتـى أن الفلسـفة

ستغدو قادرة على أن تجد أصولها الخاصة بها في هاتيك المبادئ"[٢٤]؛ وقد حظر كانط العمل في دائرة' الشيء في ذاته، على أساس إنها تمثل الحد الذي لا يستطيع العقل من إدراكه؛ لأن إدراك هذا المستوى المعرفي يتطلب، بأن ليس هناك مساهمة معرفية من المقولات القبلية للعقل في هذه الدائرة، عندئذ يتعطل أي نشاط معرفي للعقل في هذه الدائرة برأي كانط.

وكان كانط صائبا وخاطئ في آن واحد في هذا التشخيص؛ فهو صائب لان تلك المقولات تعطل العمل بها فعلا في عالم الكم الذي شرع فيه العقل العلمي معرفة ' الشيء في ذاته '؛ لأنها لم تعد تسعفه وهو في هذه المواجهة المباشرة مع الوجود في ذاته؛ وقد عبر هايزنبرغ بوضوح عن ذلك بقوله: " أن المقولات القبلية التي اعتبرها كانط، حقيقة لا يعتريها أي شك، لم يعد لها وجود في النسق العلمي للفيزياء الحديثة .....ومفارقة نظرية الكوانتم الأساسية، هي في عدم قدرة كانط التنبؤ بهذه النظرية"[٢٥] . ولكن كانط أخطأ حينما أنكر أي نشاط معرفي للعقل، من دون هذه المقولات القبلية، ومن ثم وضع حظرا على العقل من الدخول في دائرة الشيء في ذاته، فالعقل كما اثبتت فيزياء الكوانتم، قادر على الوثوب في هذه الدائرة ومن دون هذه المقولات القبلية، إذا ما أجاد التموضع فيها، بعلاقة ومساهمة وجود لوجود ــ كما سنعرف لاحقا عن دور الوعي في تشكيل وجود كيانات عالم الكم الصغير ــ وليس كما أرادها كانط بمساهمة عارف ومعروف، بواسطة الفرض القبلي لمقولات العقل على هذا العالم. فلمعرفة الوجود الخالص في هذه الدائرة، يجب أن تتراجع شمولية الإبستمولوجيا المتمددة على كل مساحة الوجود، وتتكفئ في حدود معرفة دور وجود العقل فيها، المتجاور موضوعيا مع باقي موجودات دائرة الشيء في ذاته، وهذا الحد لوجود العقل فيها، هو جواب للسؤال غير المباشر عن حدود الوجود الخالص لباقي الكيانات، وقد لمح هيدجر لهذا الخطأ الكانطي في اللبس القائم ما بين ما هو وجودي وما هو معرفي بقوله:

" إن الثمرة الموجهة لنقد العقل المحض لدى كانط، إنما تكمن في الشروع في استخراج ما من شأنه أن ينتمي إلى طبيعة ما بعامة، وليس في نظرية ما في المعرفة. وأن منطقه المتعالي هو منطق مادي قبلي يدرس مجال الكينونة الذي هو الطبيعة"[٢٦].

إذ سينتقل تموضع العقل في تقصيه الوجود الشاخص أمامه، من مجال رؤية الوجود لذاته(دائرة الظواهر) إلى مجال رؤية الوجود في ذاته، عندئذ ينقلب

المشهد، من الوصف ' لأنني قادر على معرفتك ؛ سأضمك بجواري ' (من الابستمولوجيا إلى الانطولوجيا)، إلى الوصف ' سأكون بجوارك ؛ لأنني لا أعرفك ' (من الانطولوجيا إلى الابستمولوجيا)، إذ يحصل انعكاس في تراتبية الإبستمولوجيا والانطولوجيا في كلا المجالين، وهذا ما يلخصه هايزنبرغ بقوله: " إن العلوم الطبيعية ليست ببساطة مجرد وصف وتفسير الطبيعة، إنها جزء من التأثير المتبادل بين الطبيعة وذواتنا، فهي تصف الطبيعة نتيجة تعرضها لمنهجنا في التساؤل"[٢٧] .

أي أن مسؤولية الطرف الواعي كيف يضع السؤال، والجواب يضعه الوجود، وليس من صنيعته أن يضع الجواب نيابة عن الوجود كما كان سابقا، باعتباره الطرف العارف المسلم بمقولاته القبلية، فهنا السؤال وجودي وليس معرفي وهذا ما نقصد به مساهمة وجود لوجود، لذلك اضمحلت وتلاشت مهمة البيان والتفسير المتماشية مع شروط الحس المشترك المناط بها العقل العلمي في نظرية الكم، وهي الصعوبة التي واجهت حتى العلماء البارزين أمثال اينشتين، كما يرى هايزنبرغ [٢٨].

والجواب الذي يضعه الوجود لسؤال العقل وهما في مواجهة جدلية محايدة في عالم الكم، لا يأتي بالضرورة متناغما مع مسلمات ومركزيات العقل الانطولوجية والابستمولوجية، فالثنائيات المتناقضة لصفات الكيانات الوجودية الكمية (جسيم ــ موجة)، وعدم التثبت بيقينية موقعها وحركتها في آن واحد (مبدأ اللادقة)، وإمكانية وجود الكيان الصغير بالتزامن في موقعين مختلفين .....وغيرها، كلها أمثلة لهذا الجواب الذي ينفلت من مسطرة مسلمات الحس المشترك للعقل، حينها يمسي الوجود هو ما يضع العقل تحت المسائلة ، بسؤال مفاده من أين أتيت بهذه المسلمات المسبقة عني، وها أنا برئ منها؟

أما المجهول المزعوم وعدم القدرة على التفسير والبيان الذي يعتري عالم الكم، هو مجهول في معجم ميتافيزيقا العقل ومقولاته القبلية، بعد أن اختفت في فيزياء العالم الصغير، فبرز المجهول كاغتراب للعقل عن مقولاته المعرفية ومركزيته التي تلاشت في هذا العالم؛ وما حقيقة الوجود الذري وما دونه، إلا هي هذا الوجود كما تصفه فيزياء الكوانتم، والكيانات الوجودية له هي تلك الأشياء كما تعرض ذاتها لنا، فيجب تقبلها وبدون حظر أو تحفظ عقلي، وهي النسخة الاصيلة والقياسية للوجود[٢٩]، بتوصيف العَلم الأهم من بين علماء ومفلسفي نظرية الكوانتم نيلز بور(١٨٨٥ – ١٩٦٢) .

وعلى هذا الأساس، أمسى المجهول ينظر له كركن أساسي وايجابي في جدلية البحث في فيزياء الكوانتم، وليس تحديا سلبيا كما كان ينظر له، والذي تغير في ثنائية الوجود والمجهول هو طريقة تموضع العقل وسط هذين الطرفين، فبعد أن كان العقل يدخل عالمه الفيزيائي من بوابة ما اذخره من ميتافيزيقا مقولاته القبلية، ليعرفه بآيدولوجية ضوابطها، أصبح دخوله في فيزياء الكوانتم من البوابة التي يسمح له هذا العالم الدخول منها، ليعرفه بوعي محايد منزوعا من أية آيدولوجية، عندئذ سيكون هذا الوعي المحايد مساهما في وجودية هذا العالم، وهو الطرف الوحيد القادر على استلهام النموذج الرياضي لحقيقة الوجود في دهاليز الكم، عندئذ سيكون لاعبا أساسيا في لعبة الوجود، ولاسيما في دائرة ' الشيء في ذاته ' . والذي ستمسي حقيقة هذا النوع من الوجود في ضوء فيزياء الكوانتم، سوى ما يتبقى من بنية رياضية للشيء بعد تجريده من مجمل ملحقاته المادية، ولكن بخلاف ما كان كانط يحذر من الوصول لـ ' الشيء في ذاته ' عن طريق الخبرة ، فأن هذه البنية الرياضية من الممكن تجريدها عن الطريق غير المباشر لنشاط خبرة الوعي المحايد كما يؤكد ذلك هايزنبرغ[٣٠].

إن هذه النظرة الثورية للتموضع الجديد لعقل ووعي الانسان في مواجهة الوجود المتناهي الصغر في عالم الكوانتم، رغم عدم الإفصاح عنها بشكل متميز في أدبيات فلسفة العلم، إلا أننا نجد لها قراءة جلية في فلسفة ما بعد الحداثة، ممتدة إلى شمولية المواجهة بين الوعي والوجود عموما، إذ يصرح هيدجر أحد كبار ملهمي فلسفة ما بعد الحداثة، عن الخطأ الأصيل في العقل الغربي في فهمه للحرية التي يمتلكها الوعي وهو منخرط في إدراك الوجود، بعد أن وضعها العقل الغربي في حدود ما يميل له الحس المشترك ومسلماته بأن نختار هذا الموقف أو ذاك، الأمر الذي أدى إلى " إرجاع الحقيقة إلى ذاتية الفاعل الإنساني"[٣١]، الذي شكّل واحدة من المركزيات الكبرى لفلسفة الحداثة ؛ بيد الوعي الحر، وفق هيدجر، ليس بزوال الاكراه في الحكم والاتجاه طوعا له فحسب، وإنما الحرية علاوة على ذلك هي " انفساح المجال أمام انكشاف الموجود من حيث هو كذلك، وهكذا تجد قابلية الموجود للانكشاف نفسها مصانة بهذا الإفساح المنفتح"[٣٢]؛ أي أن الحرية بهذا المعنى الكلي ستكون الضمان لولوج وعي حر محايد، وانكشاف أمين للوجود في ذات الوقت، وهذا ما قصدناه آنفا، بأن حقيقة الوجود في عالم الكم هي هذه الحقيقة التي تتكشف أمام وعي محايد غير مكبل بمقيدات الحس المشترك، جاعلا الوجود

أمامه يعبر عن ماهيته بحرية تامة، مُستقاة من جوهر الحرية ذاتها التي يتمتع بها الوعي، مما يجعل المساهمة الوجودية للوعي مشروعة ومضمونة بالحرية المشتركة لطرفي العلاقة الجدلية بين الوعي والوجود؛ لأن " ترك الموجود يوجد، أي الحرية، هو في ذاته وجود في الخارج أمام الموجود، أنه وجود براني ومنفتح"[٣٣].

وربما ينطبق هذا الوصف من هيدجر، بالمساهمة الوجودية التي يقوم بها الوعي في تشكيل الواقع الوجودي الذري في عالم الكم، الذي يقع تحت ملاحظة المراقب، حينما يخلع الوعي لباسه الذاتي، وينزاح خارجا في مشاركة وجودية برانية، وهذا شكل من اشكال مساهمة وجود لوجود التي نوهنا عنها آنفا، عندها تتلخص مهمة ومنجز ذلك الوعي بأن " كل عمل وكل إنجاز، وكل فعالية وكل توقع، كلها تبقى ضمن انفتاح مجال منفتح يضع ضمنه الموجود ذاته ويجعل نفسه قابلا لأن يعبر عنه فيما هو وكما هو"[٣٤] على حد تعبير هيدجر. هذا هو العمل والتموضع الجديد للوعي كما رسمته فلسفة ما بعد الحداثة، بأن يمنح الوعي الحرية للوجود أن ينكشف، بذات الحرية التي منحها لنفسه بمسايرة الوجود كي يدركه، ويصبح" الفهم [الادراك] ينتمي إلى وجود ذلك الذي يُفهم [يُدرك]"[٣٥] بتلخيص غادامير، عندئذ تصبح علاقة الوعي بالوجود، علاقة انفتاح وحوار وجدل، وليست علاقة هيمنة واصطياد وترويض، والوجود الذي يستضيفه الوعي في تجربة ما، كما يرى غادامير، لا يُدرك كما خطط له الوعي مسبقا، ولكن بالقدر الذي سمح به الوجود من إدراكه[٣٦].

لقد عمدت الميتافيزيقا التي هيمنت على العقل العلمي، وما رافقها من ايدولوجيات مختلفة لسنين طويلة، على تأسيس تموضع خاطئ للعقل في مواجهة الوجود، فقد كشف جاك دريدا عن الاستراتيجية الجديدة للتموضع الصحيح للتعامل مع أي ظاهرة وهو في معرض حديثه عن الأثر الكبير لهايدغر في تدشين هذه الاستراتيجية، إذ يقول:

" أن ديّني لهايدغر هو من الكبر، بحيث أنه سيصعب أن نقوم هنا بجرده، والتحدث عنه بمفردات تقييمية أو كمية. أوجز المسألة بالقول إنه هو من قرع نواقيس نهاية الميتافيزيقا وعلّمنا أن نسلك معها سلوكا (استراتيجيا) يقوم على التموضع داخل الظاهرة ، وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل. أي أن نقطع شوطا مع الميتافيزيقا، وأن نطرح عليها أسئلة تُظهر أمامها من تلقاء نفسها عجزها عن الإجابة، وتُفصح عن تناقضها الجواني"[٣٧].

أي أن التموضع الجديد في داخل أي ظاهرة، وليس رصدها من الخارج برؤية مخطط لها مسبقا، هو الكفيل ليس بمعرفة الظاهرة عن كثب، فحسب، وإنما أن نضع الميتافيزيقا التي هيمنت على معرفتها تحت المسائلة؛ أي أننا " سنقطع شوطا مع الميتافيزيقا " في ذات الوقت. أن الرصد الموّجه مسبقا من الخارج مبني على ممارسة نوع من الحد القسري الموجه من الخارج على العالم الفيزيائي، يشكل بما يسميه جاك دريدا انتهاكا له، ذلك الانتهاك الملتصق دوما بالميتافيزيقا. فجاك دريدا قد شخص ما عاناه العقل الفلسفي الغربي من الانغماس في مركزياته الكبرى، بأنه كان نتيجة ذات الهيمنة الميتافيزيقية التي تمترست في العقل العلمي؛ لذا هو يعلن أن نقض هذه المركزيات في العقل الغربي، لا تتم إلا من خلال تطوير رؤية فلسفية جديدة وفق ممارسة أدبية جديدة؛ بحيث " أن هذه الممارسة الجديدة تفترض قطيعة من هذا النوع مع كل ما ربط تاريخ الفنون بتاريخ الميتافيزيقا"[٣٨]. وبهذا السياق وحده، يؤكد دريدا يتم القضاء على الانتهاك والحد اللذين هما الناتج التلقائي للهيمنة الميتافيزيقية، حينها سننتج فكرا يحسن التموضع الصحيح في مباحثه، وسيقول شيئا موضوعيا عنه بعيدا عن الانغلاق على الوهم الميتافيزيقي:

" لا وجود لانتهاك إذا ما عنينا بذلك الإقامة البسيطة والمحضة لشيء اسمه ما وراء الميتافيزيقا، وهذا أمر يعود إلى نقطة متعلقة أولا باللغة والكتابة. تبعا لذلك فأننا في الاعتداءات وعمليات الانتهاك نتعامل مع سنن code له علاقة وطيدة مع الميتافيزيقا، إنها علاقة غير قابلة للاختزال، إلى درجة أن كل فعل انتهاكي يسجننا ــ بفعل هذا الترابط نفسه ــ داخل الانغلاق."[٣٩]

يتضح من ذلك أن فلسفة التفكيك ـــ الاتجاه البارز في فلسفة ما بعد الحداثة ـــ، وفلسفة فيزياء الكوانتم اتخذا نفس المركب الذي يؤمن تموضع جديد للعقل والوعي بصورة عامة في التعامل مع الخارج، وذلك بتأسيس مشروع علمي جديد عنوانه الرئيس ماوراء الميتافيزيقا، ويتضمن سؤالا عن مساحة الحدود التي يعمل بها، متمثلا ذلك بعلم الكتابة المتعلق بفلسفة التفكيك، وميكانيكا الكوانتم المتعلق بفلسفة الكوانتم، الذي ميزه دريدا عن العلم الكلاسيكي المرتبط بالميتافيزيقا ، إذ يكتب:

" ففي علم الكتابة عنوان لسؤال يخص ضرورة علم الكتابة، كما يخص شروط إمكانه والعمل النقدي الكفيل بتحقيق انفتاح مجاله ورفع كل العواقب الابستمولوجية من أمامه. إلا أنه سؤال يخص ايضا حدود هذا العلم؛ هذه الحدود التي حظيت

بإلحاحي بنفس القدر الذي حظيت به القضايا الأخرى، وهي نفس حدود مقولة العلم الكلاسيكية الذي ترتبط مشاريعه بشكل أساس ومنهجي بالميتافيزيقا"[٤٠].

ويبدو أن التفتيش عن حدود علم الكتابة الذي دعا له دريدا سيصل بنا إلى آفاق لم يتنبأ بها، فمن خلال هذا العلم نستطيع أن نصل إلى وصف جديد لما أُنجز في نظرية الكم، بوصفه إنشاء جديد للوجود، أو بمعنى أدق كتابة الوجود من جديد، والفقرة الآتية ستوضح ذلك.

كتابة الوجود في فيزياء الكوانتم

من المرتكزات الرئيسة التي استندت عليها الهرمنيوطيقا المعاصرة، تأسيس وحدة تطابق بين (العالم—الوجود) من جهة، واللغة من الجهة الأخرى؛ ورغم أن هذا السعي ليس هو الأول في منجزات فلسفة القرن العشرين، إلا هو الأبرز في التأثير الممتد على مساحة واسعة من العلوم الإنسانية وحتى الطبيعية منها، وكذلك لما يتضمن من تجانس مع التوجه العام للاتجاهات البنيوية وما بعدها في وضع اللغة في ريادة المواضيع الفلسفية. فهذه المطابقة بين العالم واللغة، لا يمكن أغفالها في ما أسسه الفيلسوف الفذ لودفج فتجنشتين Ludwig Wittgenstein(١٨٨٩ – ١٩٥١) في كتابه (رسالة منطقية فلسفية)–Logico Tractatus Philosophicus ، واضعا تطابقا منطقيا بين أي قضية منطقية لغوية وقرينتها الواقعة الذرية في العالم، من زاوية أن وقائع العالم الفيزيقي وبضمنها الوقائع الأولية الذرية، حسب ما يرى فتجنشتين ، ستنحل بالأخير إلى أشياء مادية " موجودات " ، فهو يقول: "التركيبة التي قوامها أشياء هي التي تشكل الواقعة الذرية"[٤١] ، مؤكداً أن الشيء هو الثابت والموجود[٤٢] ، وتترابط هذه الأشياء بعضها ببعض على نحو محدد لتشكل الواقعة الذرية[٤٣] ، ومجموع الوقائع الذرية الموجودة هو ما يشكل مجمّل العالم[٤٤] . وفي المقابل كما تكوّن الأشياء " الموجودات " الواقعة الذرية في العالم، تكوّن الأسماء القضية الذرية في اللغة، على اعتبار أن كل اسم يشير إلى شيء[٤٥]، وعلى هذا الأساس، سينتج تطابق منطقي بعلاقة واحد لواحد بين أي واقعة ذرية في العالم مع قضية ذرية في اللغة، أي تطابق منطقي بين العالم واللغة، وفي ذات الوقت، إن ما يشكل مجموع القضايا الذرية للغة المقابلة للوقائع الذرية للعالم، أي مجمّل اللغة ، هو ما يشكل مجمّل الفكر على اعتبار أن فتجنشتين وَحّد بين اللغة والفكر وهو من القائلين بانصهار اللغة بالفكر وأنهما وجهان لعملة واحدة[٤٦].

أما الاقتراب الهرمنيوطيقي لهذا التطابق بين العالم واللغة ليس بهذه الحدة المنطقية التحليلية، فالرؤية الهرمنيوطيقية المعاصرة في الوصول إلى هذا المسعى وكما يفترضها غادامير مؤسس هذا الاتجاه، بأن العالم الذي بلغ تطوره بإنتاج لغة عن طريق انبثاق الوعي فيه، لا يكون مستقلا عن اللغة التي أنتجها، والتي قدم وجوده من خلالها، "وليس العالم لا يكون عالما إلا إذا بلغ لغة ما، وإنما اللغة لا تكون لغة إلا إذا كان العالم حاضرا فيها"(٤٧).

وفي موضع آخر من كتابه (الحقيقة والمنهج)، يكتب غادامير:

" إن العالم يقدم نفسه في اللغة، والتجربة اللغوية للعالم هي تجربة مطلقة. فهي تتجاوز جميع الطرق النسبية التي يطرحها الوجود؛ وذلك لأنها تشمل الوجود – في ذاته– بأسره، أيا كانت العلاقات (أو الطرق النسبية) التي تظهر بها دائما، أما تجربتنا اللفظية للعالم فهي تجربة سابقة على كل شيء يميَّز ويخاطَب كشيء موجود"(٤٨)

وفي خطوة جريئة إلى الأمام، وكما فعل فتجنشتين من قبله بوحدة الفكر واللغة ، يقوم غادامير بوضع مجمل العالم والمعرفة التي نجنيها عنه في أفق اللغة سلفا، من حيث إذا كان " اللغة والعالم يرتبطان بطريقة أساسية، ذلك لا يعني، حينئذ، أن العالم يصبح موضوعا للغة، بل بالأحرى يكون موضوع المعرفة [به]، وعباراتها متضمنين سلفا وعلى الدوام في أفق عالم اللغة"(٤٩). ولا يُستثنى من هذا الحكم برأي غادامير، حتى المعرفة التي تحرزها العلوم الطبيعية المنظّمة، التي تستمد هويتها المتميزة من هذه المواضيع المعرفية، فأنها لا تعدو أن تكون إلا " عالم من النسبيات التي تحيط بها علاقة اللغة بالعالم"(٥٠).

من التمعن الدقيق لنموذجي التطابق بين موجودات العالم واللغة، لفتجنشتين وغادامير، وإسقاط ذلك على المعرفة في العلوم الطبيعية، نرى مهما بلغت درجة التماثل والتجانس بين اللغة وموجودات العالم في هذا المجال من العلوم، وفق ما ذهب إليه هذان النموذجان، فلا مناص بأننا أمام مشهد تمايّزي، ينبلج من رحم هذا التطابق، ومشروط ومتضمن بالتجربة اللغوية للعالم ذاتها، يقوم بفك الارتباط في وحدة هذا التطابق، ويتميز به خارج وداخل، دال ومدلول، يشكلان العلامة الأساسية للتجربة اللغوية للعالم، دال ينتمي إلى ما هو خارج الوعي في موجودات العالم ويحظى باهتمام البحث العلمي، ومدلول ينتمي إلى داخل الوعي يتعامل موضوعيا مع ذلك الدال، وكثيرا ما يسعى المدلول إلى الهيمنة على دالّه، بما متاح

في الوعي من نوازع مسبقة قبلية في الحكم والاستدلال، والعلم الحديث بثوبه الحتمي خير ما يمثل سيادة المدلول على دالّه، بوصفه علم هيمنة على الموجودات؛ ولكن في نهاية المطاف يبقى الدال متميزا ومستقلا، ومصدر إلهام لمدلولات جديدة.

أما إذا دخلنا إلى عالم الكوانتم، العالم الأساس لمجمل الوجود، فسنجد أنفسنا أمام تجربة لغوية فريدة لعالَم فريد، لم يلتفت لها فتجنشتين ولا غادامير؛ ربما بسبب التفاوت الزمني والفارق التخصصي، إذ هي التجربة التي ينشدها دعاة التطابق التام بين العالَم ولغته، وبين الدال ومدلوله، على حد سواء. ولبيان ذلك، دعونا نستدعي واحدا من الأسس المهمة المبني عليها فلسفة الكوانتم، كما جاء بتفسير كوبنهاجن لفيزياء الكوانتم، وهو التفسير الذي كتب له النجاح في وصف عالم الكوانتم، واعترف به لاحقا على مضض حتى مَن عارضوه بشدة[٥١]. يكشف التفسير أن موجودات عالم الكوانتم الذرية وما دونها ليس لها خصائص حقيقية تعين هويتها الانطولوجية وهي في حالة مستقلة وبمعزل عمَن يرصدها أو يجري قياسات لها، عن طريق أجهزة الرصد والقياس الخاصة بهذه المهمة[٥٢]؛ وقد وصف هايزنبرغ أجهزة الرصد والقياس، بأنها تمثل الخط الفاصل بين عالمين، بين عالم الكوانتم الذي يعتريه اللايقين واللاوضوح، والذي لم يبلغ عتبة الحقائق الوجودية، وبين العالم المعاش الكبير، عالم اليقين والوضوح، المكتسي حقائقه الوجودية[٥٣]؛ أي أن ما يقع خلف ما هو حقيقي ويقيني وآمن، عالم من اللاحقيقة واللايقين واللاثبات؛ وما يقوم به الخط الفاصل من أجهزة الرصد والقياس، تحويل الممكنات غير المُدركة إلى واقع قابل للإدراك؛ بمعنى إن الكيانات الوجودية في عالم الكوانتم والوعي الذي يقف خلف أجهزة الرصد والقياس، منخرطون في إنشاء جديد للوجود، من وجود خام غير مكتمل، إلى وجود ممتلئ وتام.

وإذا ما تمثلنا هذا الإنشاء الأساس للوجود، بوصفه تجربة لغوية أصيلة لعالم الكوانتم، عندها سنلتمس تطابقا تاما بين اللغة والعالم، الذي أنشأته بواسطة مجموعة مبتكرة من العلامات اللغوية، التي أفرزتها أجهزة الرصد والقياس لترميز مكونات هذا العالم الصغير؛ وفيها يتماهى الموجود الذري مع علامته اللغوية، فلا " يستطيع المرء أن يقول أن هناك جسما كوانتيا (الكترون مثلا) فهذا هو مجرد اسم نشأ عن وصف الظاهرة"[٥٤]،على حد وصف نيلز بور.

وفيها أيضا، يتماهى دال العلامة اللغوية مع مدلولها، إذ لم يعد هناك خارج وداخل في هذه التجربة اللغوية، فما كتبه الوعي من دوال لعلامات لغوية، من خلال أجهزته، هي لمدلولات ساهم في إنشائها وجوديا لموجودات لم تكن تحملها سلفا قبل الوعي بها، فالوعي وعالم الكوانتم الطري يتقاسمان المساهمة الوجودية للموجودات الكوانتية بتجربة لغوية فريدة للعالم، قوامها الانصاف في توزيع الأدوار المتأتي من الضرورة الوجودية لكل طرف.

لا يُفهم من هذا التطابق بين الدال ومدلوله، أن الوعي زاول نوع من الهيمنة على الوجود، بأن يشكّله على ما يريد، أو كما هو التطابق في التجربة اللغوية الصوتية التي يهيمن بها المدلول كليا على داله، وينشأ تطابق ضروري بين الدال والمدلول كما يذهب إلى ذلك دي سوسير(٥٥)؛ وإنما ضرورة التطابق فرضته ضرورة وجودية، فهناك طبيعة متأصلة بعالم الكوانتم، بأن لا تتشكل موجوداته موضوعيا، إلا بالوعي بها وترميزها وكتابتها من جديد، فالوعي لم يفترض سلفا هذه الطبيعة المتأصلة في هذا العالم، بل هذا النوع من الوجود قد بلغ درجة من اللااكتمال واللاوضوح، بحيث لا يمكن إحراز حقيقته الوجودية بمادته الخام وحدها، عندئذ استوّرد ووّرد للوعي ما يستكمل حقيقته الوجودية؛ وبالتالي قدّم نفسه طوعا كوجود مكتمل الحقيقة من خلال لغة الوعي، فأصبح عالم الكوانتم ولغة الوعي التي كتبته، وجهان لشيء واحد. وهذا الاستنتاج سيحيلنا إلى، ومدعوما بما جاء بمرتكز آخر من مرتكزات فلسفة تفسير كوبنهاجن، والذي يفصح عما يجري في بحوث فيزياء الكوانتم، التي ينحلّ فيها ما هو موضوعي بما هو ذاتي، وينهار الحاجز فيما بينهما(٥٦).

كذلك، إذا ما وصلنا إلى هذا الاستنتاج، بأن فيزياء الكوانتم تعبر عن نص لغوي كتبه الوجود والوعي معا، فأنه يسير وفق التأويل اللغوي للعلم بصورة عامة من وجهة نظر دريدا:

"إن فكرة العلم نفسها قد ولدت في مرحلة معينة من تاريخ الكتابة.....وأن الكتابة ليست فقط مجرد وسيلة مساعدة في خدمة العلم ــ وبالتالي في خدمة موضوعه ــ ولكنها أولا، وكما بيّن هوسرل في (أصل الهندسة)، هي إمكانية الموضوعات [في أرقى مستوياتها] وبالتالي الموضوعات العلمية"(٥٧)

لم تكتف بحوث فيزياء الكوانتم بكتابة جديدة للوجود الكوانتي، مرصودا من الحافة الآمنة للعالم الكبير وبمساهمة ضامنة من الوعي، وكما وصلنا إليه آنفا، بل تعدى ذلك إلى كتابته وهو في غمرة تلقائيته وليونته، ومن على حافته المظلمة قبل أن

يضاء بنور أجهزة الرصد والقياس، مما جعل هذه البحوث الأكثر غموضا وجدلا ولاعقلانية في تاريخ العلم، بالرغم من أنه في ذروة تطوره، فهل تعيننا فلسفة التفكيك بتأويل جديد لكتابة هذه الحافة المظلمة، وتساعد في فك طلاسمها. هذا ما سنتابعه لاحقا.

الأثر المؤسس ـــ دالّة شرودنجر

المعوّل العلمي الرائد الذي حطّم صنمية ميتافيزيقا بداهة الحضور هو دالّة شرودنجر، التي رشحت ضمن إنجازات فيزياء الكوانتم الرائدة، رغم أن حامل هذا المعوّل لم يتكهن بأنه أول المتضررين، فقد أثبت إرفين شرودنجر (١٨٦٦ – ١٩٦١) عالم الكم النمساوي، المنتظم مع الصف المحافظ على عقلانية نظرية الكوانتم، في دالّته عام ١٩٢٦، أن ما نستطيع وصفه عن موجودات عالم الكوانتم قبل رصدها وقياسها، هو مجرد تخمين نسبي لحضورها وغيابها في ذات الوقت، في مخطط احتمالي يتخذ الشكل الهندسي الموجي؛ يتذبذب فيه الوجود للكيانات حضورا وغيابا، وفق ما يقتضيه شكل التموج، الذي يتحدد هو الآخر بشبكة العلاقات بين كيان وجودي ما وحضور وغياب باقي الكيانات في بقعة الزمكان البالغ الصغر في عالم الكوانتم، لذا سمي هذا الإنجاز بـ دالة الموجة. فعلى سبيل المثال ليس هناك حديث دقيق لحضور محدد في المكان والزمان لإلكترون ما، وإنما وجوده يتحدد بخارطة احتمال لحضوره وغيابه في فترة زمنية، "وأغرب ما في هذه الفكرة أنها تعني أن أي إلكترون قد يوجد في أي مكان على الإطلاق"(٥٨).

وقد وصف هايزنبرغ هذا المشد الاحتمالي في عالم الكوانتم بتصور فلسفي بارع، مفاده أن الاحتمال الوجودي الذي تمنحنا به دالّة الموجة مختلف تماما عما يمنحنا به مفهوم الاحتمال الاحصائي في الرياضيات والميكانيكا الكلاسيكية، ففي حين الأخير يتم فرضه نتيجة عجز ذاتي بالإلمام بجميع الظروف التي من الممكن أن تؤول إلى نتيجة ما لحدث ما؛ لأن إحصائها مستحيلا؛ نجد أن احتمال دالة الموجة تفرضه الطبيعة المائعة لوجود في طور التشكّل، والمتأصلة في عالم الكوانتم، فالاحتمال هنا تفرضه ضرورة موضوعية وليست ذاتية، وبكلام حرفي لهايزنبرغ، أن التذبذب الوجودي في دالة شرودنجر يعني:

" النزوع لشيء ما، إنها الترجمة الكمية لمفهوم الوجود بالقوة في الفلسفة الأرسطية ـــ لقد قدمت[دالّة الموجة] شيئا ما يقف بين تصور الحدث والحدث الفعلي، وهو نوع من الواقع الفيزيائي الذي يقع في منتصف الطريق بين الامكانية والواقع"(٥٩).

من " النزوع " و " الوجود بالقوة" الذي يتخلل عالم الكوانتم تأتي [محنة شرودنجر]، فهو كان يأمل من اكتشافه لدالة الموجة أن يعيد الأمل والطمأنينة للتراث العقلاني للعلم الذي تأرجحت أسسه في دهاليز عالم الكوانتم، إذ أنه صمم دالة الموجة متوافقة مع ما يقتضيه الميكانيك الموجي الكلاسيكي لفهم مجريات عالم الكوانتم، ووفق قاعدة: "إذا كنت تعرف الدالة الموجية لنسق ما في وقت بعينه، بمقدورك أن تحسبه بدقة وبطريقة لا لبس فيها في أي وقت لاحق"(٦٠)؛ ولكن كان هذا ظاهر اكتشافه، وما يخفيه كان أعظم، فبعد أن أدخل نيلز بور ورفاقه دالة الموجة في رُحى طاحونة كوبنهاجن، أُعيد تأويلها على أنها لا تمثل خارطة موجية صورية، ذات وظيفة أداتيه خالصة وليس لها أي وجود موضوعي، ولترشد علماء الكم لتخمين ما سيحدث فقط، بل هي هذا العالم الكوانتي ذاته، بتذبذبه وانزلاقاته بين كافة الإمكانات حتى المتناقضة منها، والاحتمال الذي تتضمنه هو ليس احتمال صوري منطقي لأحداث قائمة الوجود لا يمكن احصائها إلا عن طريق التخمين الاحتمالي، وإنما هو احتمال وجودي يخمن ما يؤول له التذبذب الوجودي وهو في طور التشكل من أحداث ممكنة الوجود لا يمكن احصائها إلا وفق هذا التخمين الاحتمالي، فجاءت متطابقة ومتناغمة مع تفسير كوبنهاجن، وهذا ما قصده هايزنبرغ إنه نزوع لشيء ما أو هو وجود بالقوة. على أية حال، كانت النتيجة صاعقة ومخيبة لمكتشف دالة الموجة، فقال لمضيّفه بور في كوبنهاجن بعد نقاش طويل: "فكرة الكم بأسرها تقود إلى هراء...أنه لو كان علينا العيش مع قفزات الكم اللعينة هذه، فيؤسفني أني ارتبطت بأية طريقة بنظرية الكم"(٦١).

والخلاصة الفلسفية التي من الممكن استقائها من دالّة شرودنجر، أن الموجة الوجودية لعالم الكوانتم تُظهِر الحضور مسكونا بالغياب، والعكس صحيح، وترسم احتمالية تذبذب الحضور وقد تشكلت بالمحايثة مع احتمالية تذبذب الغياب، فالحضور والغياب متقابلان ومتداخلان، وكل منهما يستمد هويته من الآخر، وحاصل جمعهما ينتج مجمل الوجود في طور التشكّل في عالم الكوانتم. من هذه النتيجة سنصل إلى نتيجة أهم، هي أن بداهة الحضور المسلم بها، ونقيضها بداهة الغياب، هما وهمان ميتافيزيقيان، فلا أصالة وجودية للحضور أو للغياب في تشكيل كيانات عالم الكوانتم، وإذا كنا نتكلم عن تراتبية في درجات الأصالة الوجودية لهذا العالم الطري الدائب في التشكّل والتجدد المستمريّن، نستنتج أن 'الأثر المؤسس'– اقتبسته من مصطلحات دريدا التفكيكية كما سنعرف قريبا– للوجود كما قررته لنا

دالــة الموجــة الوجوديــة، هــو الأكثــر تعبيــرا عــن الصــيرورة التــي تعبــر عــن الطبيعــة الأكثر أصـالة فـي هـذا العـالم الـذي لا ينفـك عـن التصـيّر المسـتمر، وبالتـالي سـيكون (الأثـر المؤسـس– دالـة شـرودنجر) أكثـر أصـالة مـن الحضـور والغيـاب علـى حـد سـواء؛ لأنــه يســبقهما ويســبق الوجــود ذاتــه مــن الناحيــة المنطقيــة، ولا يكــون للوجــود هويــة مــن ناحيــة الحضــور أو الغيــاب إلا مــن خــلال مــا أباحــت بــه دالــة الموجــة، المكــافئ العلمــي للأثــر المؤســس، الــذي تضــمن ســلفا الحضــور والغيــاب، وقــرر إمكانهما.

هـذه العلامـة اللغويـة للوجـود الكـوانتي المتمثلـة بـالأثر المؤسـس فـي دالـة الموجـة، التـي ستتصـيّر إلـى كـل شـيء فـي مجمـل العـالم، لابـد أن تحيلنـا إلـى قـراءة دريـدا لهايـدغر فـي مـا يخـص علامـة كلمـة الوجـود، المشـتقة مـن فعـل الكينونـة(verb to be)، التـي تفتـرض طبيعـة كـل شـيء بوصـفه كينونـة؛ لأن كـل شـيء ممكـن أن يكـون[٦٢]، عندئـذ ستصـبح مـدلولا لكـل دال، أو المـدلول المتعـالي، لـذا يـرى دريـدا أن هايـدغر حينمـا يكتبهـا وهـي موضـوعه تحـت صـليب الشـطب(x)، إشـارة إلـى أنهـا تحمـل الأثـر المؤسـس ذات الصـيرورة المطلقـة بـالتحول إلـى أي شـيء، وعلامـة الشـطب لا تشـير إلـى علامـة سـلبية، وإنمـا هـذا الشـطب" تحـت ملامحـه ينمحـي حضـور مـدلول متعـال مـع بقائـه قـابلا للقـراءة، ينمحـي مـع بقائـه مقـروءا، يـدمر نفسـه بـأن يطـرح للرؤيـة فكـرة العلامــة ذاتهــا"[٦٣]؛ وعلــى هــذا الأســاس الوجــود الكــوانتي والوجــود الهايــدغري يتــراوح فيهمــا الحضــور والغيــاب ذهابــا وإيابــا، ومــا يبقــى شاخصــا راســخا ســوى علامــة الإمحــاء، دلالــة علــى التمــاهي الأصــيل بــين الوجــود والصــيرورة، مــن جهــة، وبــين الوجود والعلامة من جهة أخرى.

ومـن هـذه القـراءة للوجـود الهايـدغري، يقـدم لنـا دريـدا التمـاهي الأصـيل بـين الوجـود والعلامـة برؤيـة جديـدة تنسـجم كثيـرا مـع مـا عثرنـا عليـه فـي التحليـل الفلسـفي لدالـة شـرودنجر بوصـفها الأثـر المؤسـس، فهـو أولا يكشـف عـن الميتافيزيقـا التـي تنطـوي عليهـا بداهـة الحضـور، والـربط التعسـفي مـا بـين الوجـود والحضـور؛ معلـلا ذلـك بـأن" اللغـة المرتبطـة بالكتابـة الصـوتية هـو الـذي تـم فيـه إنتـاج الميتافيزيقـا القائمـة علـى مركزيـة الكلمـة التـي تحـدد معنـى الوجـود بوصـفه حضـورا"[٦٤] ، وعليـه إذا مـا سـعينا إلـى الـتخلص مـن هـذا التمركـز والانفتـاح نحـو فهـم عميـق لمجمـل الوجـود، علينـا العثـور علـى علامـة لغويـة تجيـد الانسـجام والتمـاهي مـع العـالم المنفتـح، وخيـر مـا يمثـل ذلـك هـو علامـة الكتابـة الخطيـة التـي، وفـق مـا يـرى دريـدا، طبيعتهـا الأسـاس هـي

تسجيل العلامة، وستغطي كل العلامات اللغوية في أفقها حتى العلامة الصوتية منها، فكل شيء لا يخرج عن هذا الافق الذي يتضمن حتى "العالم بوصفه مجالا للتسجيل، وانفتاحا لبث العلامات والتوزيع المكاني لها، وللّعبة المقننة لاختلافاتها، حتى وان كانت اختلافاتها صوتية"(٦٥).

إذن أصبح دراسة العلامة ونظم الدلالة التابعة لها من وجهة نظر تفكيكية دريدا، مدخلا جديدا لفهم العالم بقياساته الصغيرة والكبيرة، وأول هذه المفاهيم التي نحتها دريدا في هذا الخصوص، هو ' الأثر المؤسس ' الذي بفهمه سيمهد لنا الطريق لفهم دالة شرودنجر المثيرة للجدل، ويبسط أمامنا مدخلا فلسفيا جديدا لفهم عالم الكوانتم. بداية، يضع دريدا الأثر المؤسس كريكزة أساسية في أي بنية اختلافية، وهي البنية التي فيها تترسم هوية أي عنصر من عناصرها باختلافة عن باقي عناصر البنية: " لا يمكن أن نفكر في الأثر المؤسس دون أن نفكر في إبقاء الاختلاف داخل بنية إحالة؛ يظهر الاختلاف فيها واضحا بذاته"(٦٦)، أي أن الأثر المؤسس هو الناتج التلقائي لفاعلية الاختلاف، العنوان الأبرز لفلسفة دريدا، ولذلك يفصح دريدا عن المهمتين الأساسيتين التي تقع على عاتق الأثر المؤسس، وهما الإخفاء والإنتاج في ذات الوقت؛ حركتان تبدوان متعارضتان لكنهما متكاملتان ومتداخلتان ولا يمكن فصلهما إلا على مستوى التحليل الفلسفي؛ فلأنه من ناحية كونه أثر، يقوم بإخفاء كل الحضور الممكن للعلامات المرتبطة بعلاقة اختلافية على شكل غيابات مؤقتة ليستكمل حركة الثانية من ناحية كونه مؤسس، بإنتاج حضور واقعي مؤقت لعلامة ما وقد تشكّلت من تلك الغيابات الممكنة الحضور. هذه هي مفارقة الأثر المؤسس التي يضعها دريدا بمواجهتنا، فما غاب قد حضر، وما حضر قد غاب: "حركة الأثر هي بالضرورة حركة خفية، إنها تنتج نفسها بوصفها إخفاء لذاتها. عندما يعلن الآخر عن نفسه بوصفه كذلك فأنه يقدم نفسه عبر إخفاء لذاته"(٦٧)، وعلى هذا الأساس لا معنى للحضور والغياب لأي موجود ما دام الكل مؤتلفة تحت مظلة الأثر المؤسس، الذي سيحرز الأولوية في دراسة الوجود :

" إن الأثر الذي تتعين فيه العلاقة مع الآخر، تنتظم إمكانيته في كل مجال الموجود، وهو ما حددته الميتافيزيقا كموجود—حاضر انطلاقا من الحركة الخفية للأثر. ينبغي التفكير في الأثر قبل الموجود... ...إن مجال الموجود ، قبل أن يتحدد كمجال للحضور تتحدد بنيته طبقا لإمكانات متعددة – توليدية وبنيوية–

للأثر. إن تقديم الآخر بوصفه كذلك، أي عبر عملية إخفاء لـ 'بوصفه كذلك'، هو دائما سبق له أن بدأ، وما بنية لموجود تفلت من ذلك "[٦٨].

إذن لا تفلت بنية أي موجود من فاعلية الأثر المؤسس، وبهذا المعنى يقفز إلى مرتبة (صيرورة- بلا دافع) على حد وصف دريدا[٦٩]، حيث يلتقي في هذا الوصف النزوع الدائم المتجه إلى التحول، مع الحركة بتلقائية خالصة؛ لأنه لا يقف ورائه أي دافع، متماثلا مع وصف دالة الموجة التي تشير إلى الصيرورة المطلقة لوجودية عالم الكوانتم، المتناغمة مع التلقائية الحرة له، هذا على مستوى الوصف العام المشترك بين دالة الموجة والأثر المؤسس، أما على صعيد التماثل في التفاصيل المشتركة فيما بينهما، فدالة الموجة، هي الأخرى، تمثل نسق اختلافي من العناصر المؤتلفة فيها، لا يشكل حضور أي عنصر أو غيابه مستقلا عن الفاعلية المزدوجة للإخفاء والانتاج التي تقوم بهما دالة الموجة، بمعنى أن دالة الموجة تشيّد الحضور لعلامة أحد عناصرها عن طريق كثرة من الاحتمالات المخفية في كنفها والمختلفة عن هذا الحضور، فالحضور والغياب أحدهما يسكن الآخر وفق ما تقتضيه بنية دالة الموجة. وبهذا التصور وحده، نستطيع التخلص من المغالطات الوجودية في هذا العالم، التي تنشأ تحت أي منظور فلسفي يضع في أولوياته الاتساق المنطقي للاستدلال، في حين أن الاقتراب لصيرورة هذا العالم وفق مفهوم الأثر المؤسس والمرادف لدالة الموجة، هو سبيل تحقيق ضالتنا للخلاص من هذا الغموض والضياع، من ناحية أن الأثر المؤسس قادر على استيعاب كل تلك المغالطات الوجودية.

مبدأ اللادقة: مبدأ التتام ـــ الإرجاء: الاخـ(ت)ـلاف

لقد وصف عالم الكم النمساوي ولفجانج بولي(١٩٠٠ – ١٩٥٨) Walfgang Pauli مبدأ اللادقة الذي اكتشفه هايزنبرغ تزامنا مع اكتشاف دالة شرودنجر، بأنك تستطيع أن تنظر بعين واحدة إلى العالم من زاوية ما تشغله الأشياء من مواقع، أو تستطيع أن تنظر بالعين الأخرى إلى العالم من زاوية حركة الأشياء فيه؛ ولكنك إذا فتحت كلا العينين ستصاب بالجنون[٧٠]، وذلك وفقا لما يقتضيه مبدأ اللادقة، بأنك لا تستطيع تحديد بدقة موقع الشيء وحركته في آن واحد، فإن أردت أن تحدد موقع الشيء، عليك أن ترجئ تحديد حركته، والعكس صحيح، بمعنى أن مفهومي المكان والحركة في فيزياء الكوانتم، لا يتحدد إحداهما إلا بإرجاء تحديد الآخر، وكأن ليس

هناك هوية مستقلة لكل منهما بدون مفهوم الإرجاء الذي يتضمنهما سوية، ومن البديهي أن هذا الأمر يعد جنونا في فيزياء العالم الكبير.

لأجل التوصل إلى هدنة مع هذا الموقف الجنوني، علينا التوسل بالقراءة التفكيكية لمفارقة حركة السهم للفيلسوف اليوناني زينون الأيلي، وعلى ضوء مفهوم الإرجاء الذي نحته دريدا كناتج فاعل للاختلاف، ففي مسعى من زينون بالدفاع عن ثبات العالم وامتناع التغيير والحركة فيه، وجد في حركة السهم الطائر من نقطة ما وانتهائه بأخرى مفارقة، تؤول إلى نكران حركته، استنادا إلى أن كيف يستطيع السهم قطع مسافة من الممكن تقسيمها إلى مواقع لامتناهية، وسيمر حضوره بها في زمن متناهي؛ فبتعبير نيتشه عن هذه الحجة لزينون: "أن اللامتناهي يستخدم هنا [كمذيب] ضد الواقع، فباحتكاكه به يتفكك الواقع"[٧١]، أي تتفكك واقعية الحركة المتناهية بمذيب اللامتناهي في المكان. والحق أن هذه الحجة ينطبق عليها بجداره وصف ولفجانج بولي، ذلك أن زينون فتح كلتا عينيه لرؤية السهم الطائر، تلك التي تبغي تحديد مكانه والأخرى التي تريد تحديد حركته في آن واحد، فبدا المشهد له مفارقة جنونية. أما القراءة التفكيكية لمفارقة هذه الحجة، علينا بداية، أن نأخذ بنظر الاعتبار أن حركة السهم الطائر تعبر عن نسق ذو بنية اختلافية، يكون السهم بها حاضرا في عدد كبير من المواقع المختلفة، ويتعين كل موقع باختلافه عن باقي المواقع؛ أما الحركة ذاتها فتعبر عن نزوع الانتقال من موقع سابق إلى موقع لاحق، أي نزوع الانتقال من الماضي إلى المستقبل، وعلى هذا الأساس، " عندما نركز على الحالات الحاضرة فأن حركة السهم لا تكون حاضرة"[٧٢] ، أي أن تركيزنا على موقع يكون السهم به حاضرا أثناء حركته، ستتوارى حركته؛ ولا يعني ذلك أنها غائبة بالمطلق؛ بل هي منضوية ضمنا بالأثر المؤسس لهذا الحضور الذي يتوسط النزوع من الماضي إلى المستقبل، وبالتالي إرجاء أو تأجيل تحديد الحركة. والعكس صحيح، في ما إذا كان التركيز على حركة السهم ذاتها، سيمثل أمامنا فقط التغير المستمر للماضي وباتجاه المستقبل، وهو جوهر مفهوم الحركة، عندئذ سيتوارى الحضور المكاني للسهم، ولا يعني أنه غائب بالمطلق؛ بل هو منضوٍ ضمنا بالأثر المؤسس لمثول الحركة، من زاوية أن الحاضر دوما يحمل أثارا من الماضي والمستقبل وهما قوام الحركة، وبالتالي سيُرجئ أو سيؤجل تحديد الموقع المكاني للسهم. إذن هذه القراءة التفكيكية لحركة السهم الطائر كفيلة بفك معضلة مفارقة مبدأ اللادقة، وعلى قاعدة كي نحدد المكان نرجئ تحديد الحركة، والعكس صحيح.

يبدو إن فاعلية الإرجاء تضمنت الحركة والمكان معا، ومن الممكن أن تتضمن أي شيء، فهي فضاء حر يمتلك درجة من الأصالة بأن يمتص قوة أي صدمة تحدثها أي مفارقة وجودية أو معرفية تحيلنا إلى المستحيل، إذ يختصر دريدا ذلك بقوله: " الإرجاء ينتج ما يمنعه ويجعل ممكنا ذلك الشيء نفسه الذي يجعله مستحيلا"(٧٣) ؛ ولذلك وضع دريدا الإرجاء في قمة هرمية مفاهيمه المتناسلة من فلسفة التفكيك، فقد انتقل بسلاسة فائقة من مفهوم الاختلاف إلى مفهوم الأثر المؤسس، كي يؤول موجودات العالم تأويلا سيمونطيقيا، بوضعها على شكل علامات يشوبها شطب الأثر المؤسس، ومن ثم يتقدم بخطوة جريئة نحو مفهوم الإرجاء الذي استغرق الاختلاف والأثر المؤسس معا، وحتى مجمل الوجود والفكر. وهذا الاستغراق الشامل بان جليا بعد أن نعت دريدا الإرجاء بكلمة differ(a)nce – ترجمها المترجم العراقي كاظم جهاد الاخ(ت)لاف – لتضم بين دالّها الاختلاف difference ، وكذلك الأثر الذي يشوبها متمثلا بالحرف (a) الذي يشير إلى الإحالة والتأجيل الدائم، وإلى عدم الوصول إلى مضمون فكري محدد، بل إلى لعبة من الدلالات المتنوعة(٧٤)، هذا من ناحية دلالة الاخ(ت)لاف، أما التراتبية له في درجات الأصالة، فيقرر دريدا بأن الاخ(ت)لاف أكثر أصالة من كل موجود، لا بل أكثر أصالة من معنى الوجود بمدلوله المتعالي، رغم أنه يستدرك ويقول: "ولكننا لن نتمكن من دعوته ' أصلا ' ولا 'أساسا' ما دام هذان المفهومان ينتميان أساسا إلى تاريخ اللاهوتانية– الوجودية، أي إلى النظام الذي يعمل كمحو للاختلاف"(٧٥).

لقد دخل دريدا إلى لعبة الأصول طوعا، مخاتلا وزاخرا ببصيرة ثاقبة، فلم يضع للاخ(ت)لاف أصلا انطولوجيا أو إبستمولوجيا، بل جعل هذه المفاهيم التقليدية روافدا تصب في مقدماته الخفية، لأن طبيعة الإرجاء تحتم بأن يكون عصيا على أن يتملكه أي شيء، في الوقت الذي ليس لديه أي قسرا خارجيا على الامتلاك، من زاوية أن الإرجاء: " لقد بدأ بالشروع في الاغتراب وانتهى بأن سمح بالشروع في إعادة الامتلاك حتى [التلاشي]، [فالتلاشي] هو حركة الإرجاء بوصفها منتهية بالضرورة"(٧٦)، أي أن الإرجاء بوصفه إحالة وتأجيل دائم، فهو يعبر عن مشروع للاغتراب في حالة مؤجلة، يتضمن مشروع امتلاك غير مكتمل لتلك الحالة المؤجلة، وفي نهاية هذه الموجة من الإرجاء سيكتمل الامتلاك، ولكن بعد أن تلاشت تلك الحالة المؤجلة، لأن بدأت موجة جديدة من الإرجاء ومشروع اغتراب جديد في حالة مؤجلة جديدة؛ وهكذا يزيل دريدا الحدود الفاصلة بين الامتلاك

والتلاشي، وبتطابق مع الحضور والغياب، ويخضعها ويضمنهما في أصل الأصول (الاخ(ت)ـلاف – الإرجاء)، عندئذ يصبح الأخير أسبق من الوجود والميتافيزيقا التي بنيت على أصالة الحضور، وكذلك أسبق من فكر الوجود الذي جعل الميتافيزيقا موضوعا له، لنتمعن ما كتبه عن هذه التراتبية:

"وهذا يعني أن الإرجاء يجعل التعارض بين الحضور والغياب ممكنا. بدون إمكانية الإرجاء لن تتمكن الرغبة في الحضور ، بوصفها كذلك، من التنفس. وهذا يعني أيضا أن هذه الرغبة تحمل في داخلها قدرها الذي يتمثل في ألا يتحقق لها الاشباع أبدا....وإذا أقررنا بالإرجاء بحسبانه أصلا مُلغيا للغياب والحضور، وهما صورتان كبيرتان لاختفاء وظهور الموجود، بقي أن نعرف ما إذا كان الوجود قبل تحديده في الغياب والحضور متضمنا من قبل في فكر الإرجاء....فهو [الإرجاء] لا يسبق فقط الميتافيزيقا ولكنه يسبق أيضا فكر الوجود. هذا الفكر لا يقول شيئا مختلفا عن الميتافيزيقا حتى وإن تجاوزها وفكر فيها كما هي في أوان اختتامها"(٧٧)

الاخ(ت)ـلاف – الإرجاء بهذا المنظور التفكيكي ليس ذو طبيعة وجودية ولا فكرية ولا ميتافيزيقية، وفي ذات الوقت هو أسبق من هذه النُسق وأصلا لها، إذ يضعنا دريدا أمام مقولة تبدو أنها لا شيء، رغم أنها قادرة على تفسير كل شيء، فقد ضمنّها جل الموقف الفلسفي التفكيكي الذي تبناه حينما قال: " ما الذي لا يكون التفكيك؟ كل شيء! ما التفكيك؟ لا شيء!"(٧٨)؛ ولكن هذا الأمر لا يمنعنا أن نتحرى تحديدا سيمونطيقيا نرتكن له لما يعنيه دريدا بمقولة الإرجاء، بوصفها الأصل المطلق لعلامة الوعي، في تجربة فينومنولوجية فريدة للوعي بالذات، واضعا كل شيء بين قوسيّ الآيبوخية الهوسرلية، عندئذ لم يُبقِ سوى العلامة الخالصة للوعي مجردا من أي قصد، والتي هي أصل كل العلامات، أخذين بعين الاعتبار أن العلامة المطلقة لدى دريدا : "هي ذلك الشيء غير المسمى بوضوح، والوحيد الذي يفلت من السؤال المؤسس للفلسفة: ما هو.....؟"(٧٩).

يبدو ما كان يريد أن يصله دريدا، أن العلامة المطلقة للوعي بفاعلية أصلها الإرجائي، قد بصمت ختمها على كل شيء في الوجود، وتناسلت من هذا الأصل علامات موجودات العالم في البنية الاختلافية للوعي؛ فمع انبثاق الوعي، تبدلت طبيعة هذا الوجود والعالم، وحينها نال هويته الشخصية؛ لأنه أصبح قابلا للتسجيل والتقرير، وتفاوتت قدرة الإرجاء اللامحدودة في توثيق مفردات هوية الوجود، تبعا للتفاوتات اللامتناهية في موجوداته، فلم تظهر أصالة الإرجاء وأسبقيته على

الحضور والغياب في موجودات العالم الكبير؛ لأن أثره مخفي خلف ميتافيزيقا الحضور والغياب المنسجمة مع متطلبات الحس المشترك كما يؤكد دريدا(٨٠)؛ ولكن ما لم يلتفت له دريدا، أن هذه الأصالة والأسبقية للإرجاء ظهرت في حدود الوجود الحرجة في العالم الصغير كما توصلت له فلسفة الكوانتم، حيث يتناهى الصغر حجما ووزنا مقتربا للتلاشي، وتتعاظم الحركة مقتربة للسرعة المطلقة للضوء أو تبلغها؛ حينها يختفي الحضور والغياب خلف أصالة الإرجاء، وليس العكس كما كان في العالم الكبير، فلم يبقى أمام الوعي من ملاذ لإدراك هذه الأصالة للوجود الاستثنائي الصغير، إلا بإظهار أصالة الإرجاء في الواجهة، والتي تسمح للوعي أن يتبنى القول بحضور وغياب الموجود في آن واحد، أو القول بمحمولات متناقضة على موجود واحد بالتناوب حضورا وغيابا، لأن لم يعد الحضور والغياب يشكلان شرطا وجوديا أوليا لإدراك هذا العالم في حدوده القصوى المتنافرة.

وهذا ما حصل تماما في غمرة الجدل المحتدم بين علماء المجتمع العلمي المتخصص في فيزياء الكوانتم في نهاية الربع الأول من القرن العشرين، بعد أن انقسم المجتمع العلمي إلى فريقين: الأول، فريق أينشتين الذي لم ينكر أصالة الحضور والغياب الراسخة في عموم العالم بأبعاده الكبيرة والصغيرة، تلك الأصالة التي تعبر عن الهيكل الأساس التي قامت عليه الفيزياء الكلاسيكية، ويعزي العوز الإدراكي في عالم الكوانتم إلى مزيد من البحث العلمي لسد هذا الضعف في الجانب التفسيري؛ والثاني، فريق بور الذي أنكر الخاصية الأصيلة للحضور والغياب في عالم الكوانتم، وشرع في البحث عن مسوغ فلسفي يعطي الصدارة إلى مبدأ جديد يكون الفاعل الناجز في إدراك هذا العالم الصغير. أنطلق بور من منجز علمي أثار بركانا في أروقة فيزياء الكوانتم، متمثلا ذلك بمبدأ اللادقة لهايزنبرغ الذي لم يستطع الخصم والصديق مقاومته؛ لأنه محمي بدرع رياضي متين، وعلى هذا الأساس، رأى بور مثلما يمنعنا مبدأ اللادقة أن نتحدث عن " موضع جسيم وسرعته في آن واحد بتحديد دقيق، فعلى المنوال نفسه، لا يمكننا وصف الضوء بأنه موجة كهرومغناطيسية، ويتألف من فوتونات في الوقت نفسه"(٨١).

فقد أفلح بور في العثور على هذا المبدأ الفلسفي في عام ١٩٢٦، الذي يصون الوعي من الانهيار في مفارقات عالم الكم، إنطلاقا من ازدواجية الحركة والمكان في مبدأ اللادقة، وشروعا في ادراك الطبيعة المزدوجة للمكونات الكوانتية بصورة عامة، ولم يسمه الإرجاء كما فعل دريدا، بل أطلق عليه مبدأ التمام principle of

complementarity، الذي يضع الوعي بين خيارين في أي لحظة معينة، إما أن يدرك حضور العلامة الجسيمية في أي مكوّن متحرك ذري، ذرة كانت أم إلكترون أو حتى الضوء نفسه، تزامنا مع غياب العلامة الموجية له التي ستكون في طور الإرجاء، أو الخيار الثاني، ستكون العلامة الموجية حاضرة فيه، مع غياب العلامة الجسيمية له التي ستكون في طور الإرجاء هذه المرة؛ فوفق هذا التوضيح، أن حضور أو غياب العلامة الموجية في أي لحظة معينة لا يمتلك رسوخ متماسك، إذ من الممكن أن يبادلا المواقع، وهو أيضا ما يصح على العلامة الموجية، وما يبقى مشتركا وراسخا بين الحضور والغياب في كل مرة هو الإرجاء.

وُصف بور أنه أول من أدخل التأويل في فلسفة الكوانتم[٨٢]؛ لكنه حقا هو أول من كان يتفلسف تفكيكيا أيضا، مسجلا سبقا فلسفيا مبكرا بإرساء أسس التفكيك لفهم أعقد نظريات العلم في أعقد صور الوجود، وقد انعكس ذلك على مجمل شخصيته الفلسفية، فكانت المخاتلة التفكيكية وغموضها حاضرة المعالم في دفاعه عن أرائه، ومحل نقد ومعارضة حتى من أقرب مَن ناصروه، فعيون تلميذه هايزنبرغ التي اغرورقت بالدموع ذات مرة، منهارا بسبب تحريّات بور الفلسفية الغامضة التي لا تنتهي[٨٣] شاهدا على ذلك، أما ما وثقه شرودنجر عن الشعور بالإحباط جراء التعامل مع بور، خير من يمثل هذه المخاتلة، إذ يعترف: " سرعان ما تشرع المحادثة في الخوض في مسائل فلسفية..... وسرعان ما يختلط الأمر عليك، فلا تعرف ما إذا كنت تتبنى الموقف الذي يقوم في الهجوم عليه، أم أنه يتوجب عليك حقيقة أن تهاجم الموقف الذي يقوم بالدفاع عنه"[٨٤].

الخاتمة

مما لا شك فيه، لا يمكن إيجاز ما كتب في هذا البحث بنقاط محددة، لكثرة الأفكار التي أثيرت فيه وتنوعها، وأتمنى إنني وفقت في بيانها جليا لحظة ورودها؛ ومع ذلك من الممكن استيفائها بخلاصتين شاملتين، الأولى: أن الفلسفة ليست دائما ذلك النشاط الفكري الذي يتبنى مشروع إثارة السؤال والنقد والوصف الموضوعي فحسب، وإنما للفلسفة أحيانا جانب ثوري أخر، يتخطى مهمة إصلاح وتوضيح الفكر، إلى مهمة التغيير الجذري لرؤيتنا للوجود والمعرفة، عندها تختلط وتتداخل ملامح الفرضيات التي تتبناها في هذا الجانب الثوري، هل هي فلسفية أم علمية؛ فمنذ فلاسفة الاغريق الطبيعيون والرياضيون وحتى ماركس الذي تبنى مقولة تغيير العالم، هي تجارب فلسفية ثورية يتشابك بها ما هو فلسفي وعلمي، وفيزياء الكوانتم

موضوع البحث مثالا على هذا التداخل، فهي علمية لأنها انبثقت من داخل البحوث العلمية التي تواجه أزمة بناء أسس جديدة للعلم، وهي فلسفية لأنها سعت جاهدة على تقديم رؤية جريئة جديدة للوجود وللمعرفة، رغم لم تكن في متناولها تجارب علمية تؤيد فرضياتها، ومع مرور الزمن تحقق ما هو علمي منها تجريبيا، أما ما هو فلسفي فقد نضج في ميدان فلسفي صرف، وكما سعى البحث لإيضاحه في مجال التفكيك والتأويل، بالتماثل مثلا مع نضوج الفيثاغورية في فلسفة أفلاطون ومن بعده.

والخلاصة الثانية، لقد كانت الخاصية الفلسفية الأبرز المشتركة بين التفكيك وميكانيكا الكوانتم، هي المواجهة التي لا مفر منها مع عقلانية مسلمات الحس المشترك، الأمر الذي لم يأت من صدفة، وإنما النزعة الثورية لأي فلسفة أصيلة كثيرا ما تفرض هذه المواجهة، التي تسعى لإعادة بناء أسس العقل والعالم، ولعل ما يسعفنا أخيرا في وصف هذه المعضلة بين ثوابت الحس المشترك والفلسفة، كلمات هايدغر: " إن للحس المشترك ضرورته الخاصة، فهو يدافع عن حقه مستخدما السلاح الوحيد الذي بحوزته؛ فهو يعلن انتمائه لـ ' بداهة ' ادعاءاته وانتقاداته. والفلسفة من جهتها لا يمكنها أن تفند الحس المشترك لأنه لا يفهم لغتها، بل أكثر من ذلك، لا يمكنها حتى أن تنوي تفنيده لأنه أعمى عن كل ما تقترح عليه النظر فيه كشيء أساسي"[٨٥].

الهوامش

[١] هايزنبرج، فيرنر: المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ترجمة أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٧

[٢] هيدجر، مارتن: السؤال عن الشيء، ترجمة اسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٢ ، ص ٤٣

[٣] لندلي، ديفيد: مبدأ الريبة، ترجمة نجيب حصادي، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠٠٩ ، ص ١٨٧

[٤] أومينيس، رولان: فلسفة الكوانتم، ترجمة : أحمد فؤاد ويمنى الخولي، منشورات دار المعرفة، المجلد ٣٥٠ ، الكويت ٢٠٠٨ ، ص ١٢٦

[٥] المصدر نفسه، ص ١٢٧

[٦] ريشنباخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية ٢٠٠٤ ، ص ١٠٤

[7] Duhem , P.M. – Essays In The History and Philosophy of Science, Hackett Publishing company, 1996, P . 36 , 37

[8] Ibid . – P . 30

[٩] كون ، توماس : بنية الثورات العلمية ؛ ترجمة شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ؛ الطبعة ١٦٨؛ ديسمبر – أيلول – ١٩٩٢، ص ٤٦ -٧

[10] Rae, Alastair: Quantum Physics—Illusion or Reality? Cambridge University Press, Second Edition, New York 2004, P. 52

[11] Heidegger, Questions, IV.P. 146

نقلا عن - دريدا، جاك: استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، المغرب ٢٠١٣ ، ص ١٨٩

[١٢] يختصر لنا مؤسس الهيرمونيطيقا المعاصرة هانز جورج غادامير (١٩٠٠ – ٢٠٠٢) تطابق اللعب مع اللغة بهذا الوصف:

" اللعب شيء أكبر من وعي اللاعب، ولذا هو أكبر من كونه فعلا ذاتيا، واللغة أكبر من وعي المتكلم، ولذا هي أكبر من كونها فعلا ذاتيا أيضا ".

غادامير، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم، دار أويا للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، طرابلس ٢٠٠٧ ، ص ٤٤

[١٣] دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ٢٠٠٠ ، الطبعة الثانية، ص ١٠٣

[١٤] دريدا، جاك: في علم الكتابة، ترجمة: أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ٣٠٦

[١٥] رايان، ميشيل واخرون: مدخل الى التفكيك، ترجمة حسام نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الاولى، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ١٠٦

[١٦] هايزنبرج، فيرنر: الفيزياء والفلسفة، ترجمة خالد قطب، المركز القومي للترجمة، الطبعة الاولى، القاهرة ٢٠١٤ ، ص ٣٤

[١٧] دريدا، جاك: مواقع حوارات مع جاك دريدا، ترجمة وتقديم فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الطبعة الاولى، الدار البيضاء ١٩٩٢، صص ١٥ -- ٦

[١٨] دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، مصدر سابق، حوار للمترجم مع جاك دريدا، ص ٤٧

[١٩] ايلاريونوف، س.ف: جدل اينشتين – بوهر، ضمن كتاب
جريبانوف، د.ب: اينشتين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين، ترجمة: ثامر الصفار، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، دمشق ١٩٩٠، ص ٦٢

[٢٠] هوكينج، ستيفن و مولدينوو، ليونارد: التصميم العظيم، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٣، ص ٩٤

[٢١] المصدر نفسه، الصفحة نفسها

[٢٢] ديفز، بول: التدبير الألهي، ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، دمشق ٢٠٠٩ ، ص ٢٨

[٢٣] باشلار ، غاستون : تكوين العقل العلمي ، ترجمة خليل احمد خليل ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٨

[٢٤] أومينيس، رولان: فلسفة الكوانتم، مصدر سابق، ص ١٩

[25] Heisenberg, Werner: Physics & Philosophy, George Aalen & Unwin LTD, Third Edition, London 1971, P. 82

[٢٦] هيدجر، مارتن: الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الاولى، بيروت ٢٠١٢ ، ص ٦٢

[27] Heisenberg, Werner: Physics & Philosophy o.p.cit. P. 75

[28] Ibid.

[٢٩] أومينيس، رولان: فلسفة الكوانتم، مصدر سابق ، ص ٢٠٦

[30] Heisenberg, Werner: Physics & Philosophy, op.cit., 1971, P. 83

[٣١] هيدجر، مارتن: الحقيقة، التقنية، الوجود، :ترجمة محمد سبيلا و عبدالهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، بدون سنة نشر، ص ٢١

[٣٢] المصدر نفسه، ص ٢٥

[٣٣] المصدر نفسه، ص ٢٤

[٣٤] المصدر نفسه، ص ١٩

[٣٥] غادامير، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، ص ٣٨

[٣٦] المصدر نفسه، ص ٤٣

[٣٧] دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، مصدر سابق، حوار للمترجم مع جاك دريدا، ص ٤٧

[٣٨] دريدا، جاك: مواقع حوارات مع جاك دريدا، مصدر سابق، ص ١٧

[٣٩] المصدر نفسه، ص ١٨

[٤٠] المصدر نفسه، ص ١٩

[٤١] فتجنشتين ، لودفيج : رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة عزمي اسلام ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٦ ، الفقرة ٢,٢٧٢
[٤٢] المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ، الفقرة ٢,٢٧١
[٤٣] المصدر نفسه ، ص ٦٧ ، الفقرة ٢,٣١
[٤٤] المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ، الفقرة ٢,٤
[٤٥] المصدر نفسه، ص٨٧ ، الفقرة ٤,٣١١
[٤٦] إسلام ، عزمي : لدفيج فتجنشتين ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي ، المجلد ١٩ ، دار المعارف بمصر ، بدون سنة طبع ، ص ١٥٣
[٤٧] غادامير، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، مصدر سابق، ص ٥٧٦
[٤٨] المصدر نفسه، ص ٥٨٤
[٤٩] المصدر نفسه، الصفحة نفسها
[٥٠] المصدر نفسه، ص ٥٨٤ ـ ٥
[٥١] للتعرف على المناظرة التي جرت بين بور وأينشتين في هذا الخصوص ينظر إلى:
لندلي، ديفيد: مبدأ الريبة، مصدر سابق ، ص ٢١٠ وما بعدها
[52] Rae, Alastair: Quantum Physics—Illusion or Reality? Cambridge University Press, Second Edition, New York 2004, P. 52
[٥٣] هايزنبرج، فيرنر: المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، مصدر سابق، ص ١٠
[٥٤] مطلب ، محمد عبد اللطيف : فلسفة الفيزياء ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٧، ص ٩٠ ـ ١
[٥٥] دريدا، جاك: في علم الكتابة، ترجمة: أنور مغيث و منى طلبة، منشورات المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ١٠٢
[٥٦] مطلب ، محمد عبد اللطيف : فلسفة الفيزياء، مصدر سابق، ص ٨٧
[٥٧] دريدا، جاك: في علم الكتابة، مصدر سابق، ص ٩٧
[٥٨] جريبين، جون: البحث عن قطة شرودنجر، ترجمة: فتح الله الشيخ وأحمد السماحي، منشورات كلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ابو ظبي ٢٠١٠ ، ص ١٣٧
[٥٩] هايزنبرج، فيرنر: الفيزياء والفلسفة، مصدر سابق، ص ٤٥
[٦٠] لندلي، ديفيد: مبدأ الريبة، مصدر سابق، ص ١٩٤
[٦١] نقلا عن المصدر السابق ، ص ١٧٤
[٦٢] سيبفاك جايتريا: مدخل إلى الجراماتولوجيا، ضمن كتاب : صور دريد، ترجمة حسام نايل، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ٢٧
[٦٣] دريدا، جاك: في علم الكتابة، مصدر سابق، ص ٨٩
[٦٤] المصدر نفسه، ص ١٢٠
[٦٥] المصدر نفسه، ص ١٢٢
[٦٦] المصدر نفسه، ص ١٢٥
[٦٧] المصدر نفسه، ١٢٤
[٦٨] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[٦٩] المصدر نفسه، ص ١٢٦
[٧٠] لندلي، ديفيد: مبدأ الريبة، مصدر سابق، ص ١٨٣
[٧١] نيتشه، فردريك: الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، ترجمة : سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٣، ص ٧٧
[٧٢] كلر، جوناثان: جاك دريدا، ضمن كتاب :
البنيوية وما بعدها، تحرير: جون ستروك، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلد ٢٠٦ ، الكويت ١٩٩٦ ، ص ١٨٩
[٧٣] دريدا، جاك: في علم الكتابة، مصدر سابق، ص ٢٨٦
[٧٤] وغليسي، يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الطبعة الاولى، الجزائر ٢٠٠٨ ، ص ٣٦٠
[٧٥] دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، مصدر سابق، ص ١٢٦
[٧٦] دريدا، جاك: في علم الكتابة، مصدر سابق، ص ٢٨٦
[٧٧] المصدر نفسه، ص ٢٨٦ ـ ٧
[٧٨] دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، مصدر سابق، ص ٦٣

[٧٩] المصدر نفسه، ص ١١٩
[٨٠] المصدر نفسه، ص ١٢٦
[٨١] أومينيس، رولان: فلسفة الكوانتم، مصدر سابق، ص ٢٠٣
[٨٢] المصدر نفسه، الصفحة نفسها
[٨٣] لندلي، ديفيد: مبدأ الريبة، مصدر سابق، ص ١٨٩
[٨٤] نقلا عن : المصدر نفسه، ص ١٧٩
[٨٥] هيدجر، مارتن: الحقيقة، التقنية، الوجود: مصدر سابق، ص ١٠

قائمة المصادر : المصادر باللغة العربية

١. إسلام ، عزمي : لدفيج فتجنشتين ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي ، المجلد ١٩ ، دار المعارف بمصر ، بدون سنة طبع
٢. أومينيس، رولان: فلسفة الكوانتم، ترجمة : أحمد فؤاد ويمنى الخولي، منشورات دار المعرفة، المجلد ٣٥٠ ، الكويت ٢٠٠٨
٣. باشلار ، غاستون : تكوين العقل العلمي ، ترجمة خليل احمد خليل ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١
٤. البنيوية وما بعدها، تحرير: جون ستروك، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلد ٢٠٦ ، الكويت ١٩٩٦
٥. جريبانوف، د.ب: اينشتين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين، ترجمة: ثامر الصفار، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، دمشق ١٩٩٠
٦. جريبين، جون: البحث عن قطة شرودنجر، ترجمة: فتح الله الشيخ وأحمد السماحي، منشورات كلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ابو ظبي ٢٠١٠
٧. دريدا، جاك: استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، المغرب ٢٠١٣
٨. دريدا، جاك: الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء ٢٠٠٠
٩. دريدا، جاك: في علم الكتابة، ترجمة: أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، القاهرة ٢٠٠٨
١٠. دريدا، جاك: مواقع حوارات مع جاك دريدا، ترجمة وتقديم فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الطبعة الاولى، الدار البيضاء ١٩٩٢
١١. ديفز، بول: التدبير الألهي، ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، دمشق ٢٠٠٩
١٢. رايان، ميشيل واخرون: مدخل الى التفكيك، ترجمة حسام نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الاولى، القاهرة ٢٠٠٨
١٣. ريشنباخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية ٢٠٠٤
١٤. سبيفاك جايتريا: مدخل إلى الجراماتولوجيا، ضمن كتاب : صور دريد، ترجمة حسام نايل، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢
١٥. غادامير، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم، دار أويا للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، طرابلس ٢٠٠٧
١٦. فتجنشتين ، لودفيج : رسالة منطقية فلسفية ، ترجمة عزمي اسلام ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨
١٧. كون ، توماس : بنية الثورات العلمية ؛ ترجمة شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ؛ الطبعة ١٦٨؛ ديسمبر – أيلول – ١٩٩٢
١٨. لندلي، ديفيد: مبدأ الريبة، ترجمة نجيب حصادي، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠٠٩

١٩. مطلب ، محمد عبد اللطيف : فلسفة الفيزياء ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٧
٢٠. نيتشه، فردريك: الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، ترجمة : سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٣
٢١. هايزنبرج، فيرنر: الفيزياء والفلسفة، ترجمة خالد قطب، المركز القومي للترجمة، الطبعة الاولى، القاهرة ٢٠١٤
٢٢. هايزنبرج، فيرنر: المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ترجمة أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣
٢٣. هوكينج، ستيفن و مولدينوو، ليونارد: التصميم العظيم، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٣
٢٤. هيدجر، مارتن: الحقيقة، التقنية، الوجود، :ترجمة محمد سبيلا و عبدالهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، بدون سنة نشر
٢٥. هيدجر، مارتن: السؤال عن الشيء، ترجمة اسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٢
٢٦. هيدجر، مارتن: الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الاولى، بيروت ٢٠١٢
٢٧. وغليسي، يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الطبعة الاولى، الجزائر ٢٠٠٨

المصادر باللغة الانكليزية

28. Duhem , P.M.: Essays In The History and Philosophy of Science, Hackett Publishing company, 1996
29. Heisenberg, Werner: Physics & Philosophy, George Aalen & Unwin LTD, Third Edition, London 1971
30. Rae, Alastair: Quantum Physics—Illusion or Reality? Cambridge University Press, Second Edition, New York 2004
31. Rae, Alastair: Quantum Physics—Illusion or Reality? Cambridge University Press, Second Edition, New York 2004

Deconstruction & Hermeneutics In Quantum Physics

Search Submitted by: Assistant Professor Dr. Kareem Mousa Hussain
University of Baghdad / Faculty of Arts/ Department of Philosophy
e.mail: engineer_kmhfee@yahoo.com

Abstract:

The research has revealed a new vision to represent the philosophy involved in quantum physics by adapting it to accept an innovative reading based on the principles and categories of the philosophy of deconstruction and hermeneutics. Therefore, after the introduction to the search, the sections of it are consistent with this general trend. So, the first section has dealt with the methodic convergence between the philosophy of deconstruction and quantum physics. To find another participant between them, the second section which is dedicated to looking for a new objectification of mind has come as a complement to the first one. Then, the third section is devoted to show that the philosophy of quantum physics concerns with writing a new linguistic text of existence. The fourth section, which appeared under the title "The Foundational Trace-- Schrodinger's Function" is aimed to matching these two concepts. Then the fifth section which has been under the title' principle of complementarity : principle of uncertainty – postponement: differ(a)nce' has intended to what the fourth section has done. Finally, the research is finished with a brief conclusion.

Key words: Quantum Physics, Philosophy of Deconstruction, Hermeneutics